

القسم الثالث

إيران

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون، وخلفه عليها أبنائه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد، فكانوا يرسلون لها بالجبليات والضرائب. وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوخرستان شرقي إيران، ومد حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيران، وأفغانستان، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين. وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً. ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ وقيم بها دول علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية. وكتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران، ومدت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق، وكانت تقابلها الدولة الزيارية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها، وقد مدت سلطتها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل. ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبرز نجم الدولة الغزنوية. وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزياريين والغزنويين.

الدولة السامانية^(١)

يرجع نسب السامانيين - فيما يذكر البيروني وغيره - إلى بهرام جوبين الذي كان مَرُزْبَانًا لِخَسْرُو أَبَرْوِيز (٥٩٠-٦٢٧م) على ولاية أذربيجان الفارسية، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أي سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بلخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٤هـ) ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي، وتوفي، فحل ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفي لعصر الرشيد. ويصطنع المأمون أبناءه، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر، فيولي أحمد فرغانة ونوحاً سمرقند ويحيى الشاش وأشروسنة، كما يولي أخاهم إلياس هراة في أفغانستان. ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه. ويتوفي سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده، ويفزع إلهي أهل بخاري، فيرسل إليهم أخاه إسماعيل، ويصبح نائباً له عليها. وتفسد الأمور بين الأخوين، وتكون الغلبة لإسماعيل، فيجرد أخاه من كل سلطان، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة السامانية.

وتلتقى جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كرمان الري وبلوخستان، وتدور الدوائر على عمرو، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل، ويرسل إليه الخليفة المعتضد بخلة السلطنة. ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة، ويموت متأثراً بجراحه، ويستولي إسماعيل على إمارته. وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نواباً عديدين،

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغري بردي في مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار التاب اللبناني) ٧١٢/٤ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولير (الترجمة العربية - طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسي لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصي (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين بيروت) ص ٢٦٢.

وبينما كانوا يقيمون في بخاري حاضرتهم كان قائد جيشه يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة. وتكلل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار، فنادى إسماعيل في خراسان وبقية إمارته بالنفير، وجاءت الجنود من كل فج، وهجم بهم على الترك في السَّحَر، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وفر الباقيون لا يلوون. وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة، فهو الذي نظم علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد، فلم يكن يؤدي لها ضرائب مالية، بل كان يكتفي بإرسال بعض الهدايا، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة. وقد منحه الخليفة حق ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحق نقش اسمه على الدنانير. وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسي عن الخلافة، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكونوا حكمهم شرعياً، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة.

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١هـ) وكان شجاعاً، فاستولى على سجستان، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢هـ) ومنه اقتطع مرداويج الزياري طبرستان سنة ٣١٦ واتهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلي الشيعي، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣هـ) وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، وكانت فيه شدة وعنف، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سمل عيونهم جميعاً. وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠هـ) وكان ضعيفاً. وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦هـ) وأرسل إليه الخليفة المطيع بالخلد الله بالخلع والتقليد. وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيراً من أطراف دولتهم في إيران، فاستولوا على كرمان. غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر، وظل سلطانهم قوياً فيها حتى عهد منصور. وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم. ويحكي ذلك ابن حوقل قائلاً: "ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً، ولا أوفر عدة، ولا أكمل عدة، ولا أنظم أسباباً، ولا أكثر أعطية، ولا أدر طعاماً، ولا أدوم حسن

نيات من السامانيين، مع قلة جباياتهم ونزور أخرجتهم، وقلّة الأموال في خزائهم، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبي صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا، لكل خراج يقبض وضمان يحمل في كل ستة أشهر، عشرون ألف ألف درهم. وعليه أربعة أطعمة في كل سنة دارة، غير مقطوعة ولا ممنوعة، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً، يخرج منه إلى غلمانهم وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكور، وهي عشرون ألف ألف درهم، عن نفس طيبة ومسرّة ظاهرة، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة.. وهذه الحال أعمّاهم مشحونة بالقضاة والجباة والكفاة والولاة منزّلين على أرزاق تتساوى، وأحوال في المراتب تتداني، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالي الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة، وليس ينقص بعضهم عن بعضهم". وهي شهادة قيمة من شاهد عيا غير متحيز، إذ كان ابن حوقل شيعياً إسماعيلياً، وكان السامانيون سنين، خصوصاً لشيعته، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها في الأرزاق والرواتب، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفاني في خدمتهم.

وخلف منصوراً ابنه نوح الثاني (٣٦٦-٣٨٧هـ) وكان صغيراً لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة، وكأنها كان ذلك نذيراً بتضعف شؤون الدولة، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين ينزلون السامانيين فيما وراء النهر، وكانوا قد أبلوا في حربهم قبل ذاك طويلاً، وبنوا على حدودهم معهم ربطاً كثيرة، حتى إذا ولي نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين، وكان عبد الملك أبوه قد ولي ألبتكين قائد جيوشه أمر غزنة، فاستعان بمملوكه سبكتكين، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة، فولى نوح الثاني ابنه محموداً الغزنوي خراسان، وتوفي نوح، واضطربت الأمور بعد وفاته، بين ابنيه منصور وعبد الملك، وعلت كفة الأخير، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيراً، فخلا الجو لمحمود الغزنوي، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية.

الدولة البويهية^(١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبي بحر قزوين موطنهم فقط، بل تغلغلوا في إيران، وكان في مقدمة من خرجوا على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد، وعملوا أولاً - كما مر بنا في قسم العراق - مع القائد الديلمي ما كان بن كاكي، حتى إذا هزمه مرداويج الزياري حاكم طبرستان وجرجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - "الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مئونتنا، ويقع كلنا (عبئنا) على غيرك، فإذا تمكنت عاودناك". ووقع على بن بويه من مرداويج موقعاً حسناً فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرقي من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أرجان وفي تاليتها على فارس. وقتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فانتهز علي وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والري اللتين كانتا بيده. وكان أخوهما - كما مر بنا في قسم العراق - قد استولى على كرمان جنوبي إيران في سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد، وكانت تعاني من فوضى شديدة، فدخل أحمد - كما مر بنا في قسم العراق - بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفي ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً صاحب فارس عماد الدولة ولقب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والري ركن الدولة.

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق في قبضة البويهيين، وأخذوا يزعمون أنهم من سلالة الملوك الساسانيين، ويذكر البيروني أنهم انتسبوا إلى الملك الساساني بهرام جور، بينما ينسبهم ابن الجوزي في كتابه المنتظم إلى سابور بن أردشير. ويروى أن بويه أباهم كان صياداً بائساً على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلغ به. ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم. وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغاً عظيماً، حتى كانت السكة تضرب بأسمائهم، وحتى كانت أسماؤهم تذكر مع الخليفة في خطبة الجمعة.

(١) انظر في الدولة البويهية المصادر المذكور في الفصل الأول من قسم العراق.

وكانوا شيعة ويذهب ابن حنبل إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدي^(١)، ولعله تأثر في هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدي قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد في أواسط القرن الثالث بتلك الديار، ونمى المذهب بعده هناك أخوه محمد، ثم الحسن الأطروش. والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثني عشرية على نحو ما سنوضح ذلك في حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر في نقل الخلافة إلى العلويين، فخوفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلاً له: "متى أجست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافتك، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه" فانصرف عما كان عزم عليه. وظل الخلفاء العباسيون في يده وأيدي البويهيين بعده كأنهم أسرى.

وكانت رئاسة البيت البويهي للأخ الأكبر عماد الدولة، فلما توفي سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقباً انتقلت الرئاسة إلى أخيه ركن الدولة، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم ملكه بين أولاده، فجعل - كما مرّ بنا في قسم العراق - لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان ولأخيه مؤيد الدولة الري وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة همذان والدينور. وجعل لعضد الدولة الرئاسة على أخويه، وصدعاً لأمره، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبلان الأرض بين يديه على عادة الديلمة، ويخدمانه بالريحان. ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق. ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧. ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما.

ومرّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام. وبلغ من شعوره بأمجاده واعتداده بنفسه أن فكر يوماً في أن يتقلد خلافة المسلمين، فقد ذكر ابن حزم في كتابه "نقط

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حنبل (طبعة إستانبول) ص ٣٢.

العروس في تواريخ الخلفاء" أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصري المعروف باسم الجعل أن يؤلف كتاباً في تقليد الخلافة في غير قریش أملاً منه في أن يتسمّى بها، وألّف الجعل أن يؤلف كتاباً في تقليد الخلافة في غير قریش أملاً منه في أن يتسمّى بها، وألّف الجعل الكتاب، وانتشر الخبر إلى خراسان، فصاح الناس في مجالس الفقهاء: وإسلامه! ومحمداه! وبلغ ذلك عضد الدولة. فخشى الثورة عليه، وسَمَّ الجعل، وقنع الناس بموته وسكن الأمر^(١). وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفاً ورعباً، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدهه بفتاة، فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة. وكان يضبط أمور دولته ضبطاً دقيقاً، فطهر الطرق من اللصوص - كما مرّ بنا في قسم العراق - ورفع الجباية عن قوافل الحجاج، واحتفر لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين، وبني كثيراً من المساجد الجامعة في مملكته وعُني بالعمران وزرع البساتين عناية واسعة.

ويتوفى ويخلفه - كما مرّ بنا في قسم العراق - ابنه صمصام الدولة، وتتوالى الأحداث، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده. ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة، ويصبح له الأمر من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩-٤٠٣ هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافي الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك. ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم، ولكنهم تفتنوا في تلقيب قواد جيوشهم. وبلغ من شيوخ ذلك بين حكما إيران أن نجد بغراخان التركي حين يثور على الولة في نسة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة.

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر، عدد ديسمبر ١٩٥١

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا في قسم العراق - ظالماً سفاكاً للدماء، وهو أقبح ملوك بني بويه سيرة، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣-٤١٥ هـ). وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كَرَمَان إلى أن توفي سنة ٤١٦ هـ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥ هـ). ولا يلبث محمود الغزنوي أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة علي الري وأصفهان وبلاد الجبل. وتعظم الفوضى في عهد جلال الدولة، ويخلفه أبو كاليبجار محي الدولة (٤٣٥-٤٤٠ هـ). ويعظم في عصره شأن السلاجقة، ويستولون على كثير من إيران، ويتوفى أبو كاليبجار غمًا، ويخلفه الملك الرَّحِيم، ويدخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ هـ للهجرة، كما مر بنا في قسم العراق، وبذلك يتقوَّض سلطان البويهيين في العراق وإيران نهائياً.

الدولة الزَّيارية^(١)

زعم البيروني في كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنسبُ إلى المل الساساني قُباذ الذي حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح، فإنها ترجع إلى أصل إيراني، وكان مؤسسها مَرْدَاويج بن زيار الديلمي (٣١٦-٣٢٣ هـ). أحد قواد الجبل الذين ظهروا في شمالي إيران لذلك العهد، وقد انتظم في سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسفار بن شيرويه الديلمي المتغلب على قَزوين وديارها، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله، وملك البلاد، مؤسساً لأسرته إمارة في طبرستان وجُوجان جنوبي بحر قزوين أو كما يسمى بحر الخزر، ومَدَّ أطراف إمارته جنوباً وغرباً، حتى الري وأصفهان وهمذان وأرمينية وأذربيجان وخوزستان، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته، وكان فيه عتو شديد. وكان شعوباً شديداً الكراهية للعروبة، فزعم - فيما زعم - أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة، ووعد شيعته بالمسير

(١) راجع في الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيروني وتكملة تاريخ الطبري للهمداني (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي في مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودي (طبعة دار الأندلس بيروت) ٨٢ / ٤ وما بعدها، وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٣ وآدم ميتز ص ٢٦ ويراون في مواضع متفرقة من كتابه: تاريخي الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ترجمة الشواربي.

إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليّتهم ديار الإسلام ومدنه وسأل عن تيجان الفرس فمثّلت له هيئتها، فأختار هيئة تاج كسرى أنوشروان، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلىّ بالجواهر، وصنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة. وكان يبطن المجوسية، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السّدق، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة. وقد أمر في تلك الليلة بأن تجتمع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرتة أصفهان، ونصبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعاً عظيمة اتّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة. وتمادى في بغيه وعتوه تمادياً شديداً، حتى أوغر صدور بعض غلمانه، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة، ونهبوا خزائنه وأمواله. ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزناً شديداً، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته.

ومرّ بنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده علي بن بويه استولى عقب وفاته على أصفهان والري وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجرجان، فإنهما ظلتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣-٣٥٦هـ). ويقال إنه ركب فرساً وشبّ وهو غافل عنه، فسقط ميتاً. وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦-٤٠٣هـ). وكان كاتباً وشاعراً، وما زال البويهيون يغيرون عليه حتى قر من إمارته عام ٣٧١ إلى السامنيين، وعاش عندهم مكرماً حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه. ويقال إنه عتّا وبغى، واشتد بغيه وعتوه، فأجمعت حاشيته على خلعه، واضطرت ابنه منوچهر (٤٠٣-٤٢٦هـ). أن ينزل على إرادتها، وحبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد. وظل منوچهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوي استرضاء له، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصناً منه بجبال وعرة، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنوشروان (٤٢٦-٤٣٠هـ) ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوي على الإمارة، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

الدولة الغزنوية^(١)

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيات لهم - كما هيا العباسيون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم، وأ، يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش، وأن يقوضوها نهائياً بحيث تصبح أثراً بعد عين. وكان من أثار ذلك قيام الدولة الغزنوية، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ) كان قد عين مملوكه التركي: ألبتكين قائداً عاماً، حتى إذا توفي عبد الملك مضى إلى غزنة بأفغانستان، وأعلن نفسه أمير عليها، وعاجلته المنية، فخلفه ابنه إسحق، غير أنه لم يلبث أن توفي فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكِين (٣٦٦-٣٨٧هـ). وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية، وقد بدأ أعماله بالإستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة شجستان القديمة، وغنم فيها غنم منها الكاتب الفذّ أبا الفتح البستي، وكان يكتب لأمرها المغلوب، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة. وأخذ سُبُكْتِكِين يغزو الهند. وسقط كثير من قلاعها في يده. وجرّد هملتين كبيرتين لحرب ملك البنجاب المسمى جِيَال، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة، وأن يتخلّى له عن إقليم كابل في شرقي أفغانستان وكان يُشرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الخصيب. واستغاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه، فنكّل بهم، مما جعله يلقبه بناصر الدولة، ويولي ابنه محموداً على خراسان ويلقبه بسيف الدولة.

وتوفي سُبُكْتِكِين، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه، وكان ضعيفاً، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف، وكان محمود لا يزال والياً للسامنيين على خراسان، وأبي إسماعيل ذلك إباء شديداً، فسار محمود على رأس جيش إلى غزنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله. ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١هـ). أكبر أمراء

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وكتاب تاريخ اليميني للعتبي مع شرح النيني (طبعة القاهرة) في مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب في إريان من الفردوسي إلى السعدي ليراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦.

هذه الدولة وأبعدهم صيتاً لمده أطنابها شرقاً وغرباً وشمالاً، ولنهضته بالعلوم والآداب في عصره نهضة واسعة. وكان مثل أبيه وأسرته والأثرak جميعاً سنياً، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة، وخاصة الغلاة منهم، واضطهد أيضاً المعتزلة لأنه كان على مذهب أهل السنة^(١). وكان الأمير منصور بن نوح الثاني الساماني قد انتهز فرصة مبارحته لخرسان لحرب أخيه، وفولي عليها أحد أتباعه، وتطورت الأمور، كما مر بنا في حديثنا عن السامانيين، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم، واعترف محمود اعترافاً كاملاً بالسلطة الروحية للخليفة العباسي، مما جعله يخلع عليه لقب: "يمين الدولة وأمين الملة". ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب "ظل الله في أرضه" وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب في الإسلام. واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خوارزم الصغيرة والكرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبويهيين سوى كزمان وفارس.

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه في الهند وتمكينه للدين الحنيف في ديارها. وهو يعدّ فاتحها الحقيقي، أما فتح محمد بن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك فيعدّ غزواً أكثر منه فتحاً حقيقياً، ومما فتحه في الهند الملتان وكشمير والبنجاب. وكان يتغني بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغانم، كما يزعم بعض المستشرقين. واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة في عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية، وفيه يقول الفردوسي مصوراً استثنائه بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه: "عند ما يفطم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفثيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود. وإنه كالفييل يجسده ومثل جبريل يروحه، أما كفه همزن هاطل، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته. إنه كالفييل يجسده ومثل جبريل يروحه، أما كفه فمزن هاطل، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته. إنه السلطان والملك الكبير الشأن، الذي جعل الشاة تضنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان".

(١) في المنتظم ٨ / ٤٠ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض.

وعهد محمود من بعده لابنه محمد. وكان ابنه الأبر مسعود غائباً بأصفان، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١-٤٣٢هـ). وفتح - كما مر بنا - جرجان وطبرستان، وقضى على الدولة الزيارية. وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مدّها، ولم يستطع وقفها، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه، وقتلوه بدوره، وولوا مكانه ابنه مودواً. ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم "طغرل بك" وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهندس، ومن أهمهم إبراهيم المتوفي سنة ٤٩٣ وكان حازماً عادلاً بعيد المهمة، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣-٥٠٨هـ). وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفي سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفي سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢-٥٤٧هـ). واضطره السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته، ودفع إتاوة له صاغراً. وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية، وما زالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائياً إلى عاصمتهم في الهند "لاهور" وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار ٥٨٢ للهجرة.

دول متعاقبة

انتهى حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتعاقبة في إيران التي كانت تتوزعها فيما بينها والتي كثيراً ما تحاربت وعاشت في خصام، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنتشر على بلدانها لواءً واحداً، وكان لكل دولة من هذه الدولة عصرها التاريخي، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز.

دولة السلاجقة^(١)

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز، ويسمى مؤرخو العرب الغز تخفيفاً، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجون وقد نزل بهم قريباً من بحر الخزر (بحر قزوين) في الهضاب المتصلة بنهري سيحون وجيحون متخذاً مدينة "جند" حاضرة له. وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان. وكانوا يعتنقون المذهب السني، وكانوا بدواً فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم، وأخذ شأنهم يعظم، مما جعل محمود الغزنوي يتنبه لهم، خوفاً من استيلائهم على بعض دياره في خراسان. وكان سلجوق قد توفي وخلفه ابنه إسرائيل، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزج به في غياهب السجون، وظل سجيناً بإحدى قلاع الهند حتى توفي سنة ٤٢٢. وكان محمود قد توفي قبله، وصمم السلاجقة بقيادة طغرلبك على الانتقام، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوي في سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان في سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها، ولكنه هُزم هزائم متوالية في الستين التاليتين، وأعلن طغرلبك نفسه ملكاً على البلاد، كما مر في قسم العراق. ومضى يستولي على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل. واعترف الخليفة "القائم بأمر الله" بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرلبك في الخطبة وأن يضرب اسمه على النقود. وقضى طغرلبك على البويهيين نهائياً - كما مر بنا في قسم العراق - ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ في موكب رسمي، وأجلسه الخليفة معه على العرش - كما مر بنا - وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبك محمد بن منصور الكندري. واتخذ طغرلبك مدينة الري حاضرة له، وولى علي البلدان إخوته وأبناءهم، ودانت له العراق كما دانت له إيران، وكان وزيره الكندري هو الذي

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق.

يصرف الأمور في دولته الواسعة وكان أديباً شاعراً، وكان يظهر التسنن غير أنه كان في حقيقته معزلياً.

وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥ وخلفه - كما مر بنا في قسم العراق - ابن أخيه "ألب أرسلان" وكان له أخ يسمى سليمان، حاول الوزير الكندري أن ينصبه على العرش من دونه، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندري، وأرسل به إلى مرو، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله. وكان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) بطلاً مغوار قضى على كل من ثاروا عليه، سواء في هراة أو فيما وراء النهر أو في فارس وكرمان. وخضد شوكة الفاطميين مستولياً منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة. وأعد الروم له جيشاً كثيفاً قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي "ديوجينيس رومانوس" فأسرع إليهم في خمسة عشر ألفاً من صفوة جنوده، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلط في أرمينية، وعصفت جنوده - كما مر بنا في قسم العراق - بهذا الجيش الضخم منزلة به هزيمة ساحقة، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئاً ذليلاً، ونزل على الشروط التي طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعقد معاهدة لمدة خمسين عاماً يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يحرر جميع أسرى المسلمين. وبينما كان يحارب الترك عند نهر جيحون منزلاً بهم هزائم متوالية وافاه القدر. وكان يدبر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة، وكان عدواً للرافضة والإسماعيلية سني العقيدة، واشتهر - كما مر بنا في قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهراة وطبرستان، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيراً من الضرائب التي كانت ترهق الشعب، وكان أشعرياً شافعيّاً، فازدهر المذهب الشافعي والأشعري لعهد.

وخلف ألب أرسلان - كما مر في قسم العراق - ابنه ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة، وكان ملكشاه يعجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه، وخرج عليه بعض أقربائه، ولكنه انتصر عليهم جميعاً.

وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النيروز في سنة ٤٧٢. وكانت جيوشه ماتنى غادية رائحة، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سمرقند، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة " كاشغر " النائبة الجزية المفروضة على بلاده. ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيوشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهر جيحون أخذون أجرهم صكوكاً تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة. ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية، وخاض به البحر شاكراً ربه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتد من بلاد التتار والصين إلى ديار الشام على البحر المتوسط، وعني بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم. ودس خصوم نظام الملك له عنده، فأعفاه من الوزارة، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام، فطعته طعنة نجلاء كانت سبباً في وفاته سنة ٤٨٥ ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد. وبذلك ينتهي - كما مر بنا في قسم العراق - عهد السلاجقة العظام.

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بركياروق أكبر أولاده (٤٨٥-٤٩٨ هـ) ولقب بركن الدولة، وخالفه عمه تَشُّص صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان، وله معها وقائع كتب له فيها النصر، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا في قسم العراق - وقتل منهم في بعض السنوات مئات، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨-٥١١ هـ) ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولي على حصونهم، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١-٥٢٥ هـ) وكان شديد الحمق، فحارب عمه سَنَجَر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق. وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣-٥٥١ هـ) واستقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أَسَز. وحاربه الترك في سنة ٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس، وحاربه الغز في سنة ٥٤٨ وأسروه، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نحبه. واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كَرَمَان هم تُورانشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه

المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة، حتى فقد الأمراء سلطانهم، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة.

الدولة الخوارزمية^(١)

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملكشاه، وهو أنوشتكين، حين جعله هذا السلطان والياً على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة، ومن أهم ملوكهم أتبسز (٥٢١-٥٥١هـ) وله وقائع مع سنجر السلجوقي، وتمكن أحياناً من الاستيلاء على مرو ونيسابور، ويقترب باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الطواط. وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها، وخاصة الأجزاء الشمالية، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صموداً باهراً للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم.

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا، وكانت تعيش على الرعي والصيد، واستطاع جنكزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين - كما مر في القسم الخاص بالعراق - ثم يغير بها على مملكة خوارزم ويقوض هذه المملكة، كما أغار بها على خراسان، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الري وهمذا، منزلة فظائع وحشية، وبحق يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلت بالعالم. وامتدت أيام جنكزخان

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي وزبدة النصرة للبنداري (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصهباني) وذيل الروضتين لأبي شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوي. وراجع تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدري محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي لحافظ حمدي (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون.

في إيران من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهي السنة التي قضى نحبها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاماً. واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التي افتتحوها في الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوازر، واتفقوا جميعاً على أن يتولى بعده ابنه أوكدي (أوكتاي) (٦٢٥-٦٣٩هـ). واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه - كما مر بنا في قسم العراق - أوروبا الشرقية: روسيا وبولندا، ونكلت جيوشه بالناس فيها تنكيلاً شديداً على نحو ما نكلت جيوشه أييه بالإيرانيين والصينيين، ويقال إن آذان ضحاياه في بولندا بلغت مائتين وسبعين ألفاً. وحين توفي خلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئاً باستئصال الإسماعيلية الملقبين بالحشاشين من معاقلهم في " الموت " وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائياً. ولم يلبث أن أرسل إنذاراً إلى الخليفة " المستعصم بالله " أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد. وتقدم إليها في سنة ٦٥٦ فافتسحها كما مر بنا في الحديث عن العراق، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده - كما يقول المؤرخون - نحو مليون من سكانها، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله - كما مر بنا في قسم العراق - وحرقوا قصوره، ونهبت البلدة وما كان بها من الكتب، وكان ذلك إيذاناً بدمار الحركة العلمية فيها وأفول نجمها.

الدولة المغولية^(١) الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذي ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيهما - تسمى دولة الإيلخانيين، وأرسل في سنة ٦٥٨ جيشاً كثيفاً للاستيلاء على سوريا ومصر - كما مر بنا في قسم العراق - واستولى على أكثر البلاد السورية، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بيبرس تصدى للمغول في عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة، وتعقبهم في سوريا حتى ردهم عنها إلى

(١) راجع في الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق.

العراق وما وراءه. وتوفي هولأكه في عام ٦٦٤ للهجرة، فخلفه ابنه أبغا (٦٦٦-٦٨٠هـ) وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية، إذ كانت دائماً تنزل بها ضربات قاصمة. وأخذت من حيثئذ تنفصم الصلات التي كانت تربط الإيلخانيين في إيران بأباطرة المغول في (قراقورم). وبموت أبغا ينتهي العهد الوثني للمغول وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف، ولم يمض في الحكم سوى عام واحد، إذ قتلته يد آثمة. وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١-٦٩٢) وفي عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع، وخلفه أخوه كيخسرو لمدة ستين، ثم يبدو وقتل سريعاً. وولى بعده - كما مر في قسم العراق - غازان (٦٩٣-٧٠٣) الذي أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عهداً ذهبياً عظيماً، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرًا واسعاً، وعني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجل المدن الإسلامية، وقد بنى فيها رباطاً وبيمارستاناً ومدارس دينية ومرصداً كبيراً ومكتبة فخمة، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراءة والأساتذة والطلاب. وخلفه أخوه خدابنداً سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوین سماها السلطانية، واحتفل في بنائها والاهتمام بها احتفالاً واسعاً. وتوفي سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة، وكان في الثانية عشرة من عمره، فلم يستطع ضبط البلاد، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان، وكونوا دويلات صغيرة، كان أقواها الدولة المظفرية في كرمان التي استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبي من إيران. وتظل البلاد في فوضى نحو نصف قرن من الزمان، إلى أن يغزو تیمورلنك إيران والبلاد العربية.

الدولة المغولية التيمورية^(١) وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر في قسم العراق - في كش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سمرقند سنة ٧٣٦ للهجرة، وهو من سلالة جنكزخان، كان أبوه والياً لكش ونواحيها، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان. وما زال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده - كما مر في قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة، ومد سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨ - كما مر في قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان. وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس، فأغار على أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرها وتكريت وآمد وحاصر بغداد - كما مر في قسم العراق - سنة ٧٩٥، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دلهي. ثم اتجه شرقاً في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى، ودخل ديار الشام، واستولى على حلب وحما وحمص وبلبك ودمشق. ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لا تزال ماثلة نصب عينيه، ويستولى على بغداد. ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويهزمون هزيمة ساحقة. ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعد حملة كبيرة على الصين، وتسير الحملة في وجهتها، غير أن أجله يوافيه، فيتوفى عن واحد وسبعين عاماً بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستاً وثلاثين سنة. وقد ملأ سمرقند بالعمائر الفخمة، وضرىحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة. وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمراً من

(١) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق. وانظر في الدول التالية تاريخ

الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى ٨٢٥ / ٢ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولير ص ٧٦ وما

بعدها.

فتوحات جنكزخان وخلفائه، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين.

وتوزع ابنائه: شاه رخ وميران شاه إمبرطوريته - كما مر في قسم العراق - فكان شطرها الشرقي الشامل لإيران من نصيب شاه رخ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه. وتوفي سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفي سنة ٨٥١ للهجرة. وخلفه ابنه ألغ بك (٨٥١-٨٥٣هـ) وكان راعياً كبيراً للفن والأدب الفارسيين. وولى بعده بوسعيد (٨٥٤-٨٧٤هـ) وكان سلطانه وطيداً في دياره إلى حدود الهند. وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤-٩٠٢هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلامية. ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيباني قضت على التيموريين في الشرق، وفر آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام.

وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربي إيران، واتخذت تبريز عاصمة لها. ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربي إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوي (٩٠٧-٩٣٠هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هي الدولة الصفوية. وفي قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً، وكانت تمتد شرقاً إلى هراة وغرباً حتى شملت العراق جميعه. وجعل دولته دولة إيرانية قومية، متخذاً العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين. وظل حكم الدولة الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاماً، وخلفهم عليها الأفغانيون وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاماً وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً.

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات: طبقة عليا، تتضمن الأمراء الحكام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراعة والخدم والرقيق، ويدخل أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم.

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفاً واسعاً، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد، وصبت الأموال التي تعد بالملايين في خزائنها، وكانت مصادرها متعددة، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس، ضرائب الأرض، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي، وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه، ويحمل ما يتبقى إلى ديوان الخرج أو بيت المال في حاضرة الدولة، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة. وما بقي منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب. وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة. ولا بد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو الساماني أو السلجوقي، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة. وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم في عهد التتار ومن تلاهم. وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه. وكثرت في تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يعزلون أو يموتون، وكذلك الكتاب والعمال، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة.

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن بعضهم كانت تكال كيلاً، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرأها في كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم، فمن ذلك ما يروى عن فخر الدولة البويهية صاحب همذان والجل والدينور وجرجان من أنه خلف حين مات مليوني دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين، ما خلف من الجواهر والياقوت والآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار، ومن الفضة من وزنه ثلاثة ملايين، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل^(١). أما أخوه مؤيد الدولة فيروي أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار^(٢). أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الري وأصفهان لا يعرف لها قيمة، ولذلك يبذرها ويتلفها حسب هواه. وعظم شأن أخيها عضد الدولة، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبي إيران وحتى العراق وعُمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام، وكان دخله - فيما يروى - ثلثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم، وقيل بل كان اثنين وثلثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم^(٣). وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بذخه، وخير ما يصور ذلك قصره الذي بناه بشيراز، فقد رآه المقدسي بعد موته بفترة قليلة، وبهت حين رآه، وفي ذلك يقول: "بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها. شق فيها الأنهار ونصب عليها القباب، وأحاطها بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد. وسمعت رئيس الفراشين يقول: فيها ثلثمائة وستون حجرة، كان مجلسه كل يوم في واحدة

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٧ والمتنظم ٧/ ١٩٨.

(٢) المتنظم ٧/ ١٢٢.

(٣) المتنظم ٧/ ١١٦.

إلى الحول.. وطففت فيها ورأيت الأنهار تطرد في البيوت والأروقة. وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة، وبأن بونا بعيداً وضل ضلالاً ميبناً^(١).

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط، فالأمير لا يريد أن يجلس بيته في حجرة مهيأة لجلوسه كل يوم، بل يريد أن تتغير، بحيث لا يعود إلهياً إلا في عام تال، وكأن الحجر في القصر أصبحت كأزيائه، فهو يبدلها كل يوم، وطبعاً لا يهتمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمه مصالحه، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام في ربوع إمارته الواسعة، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء، ولكن لا شك أنه كان يغرق نفسه في الترف والنعيم.

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون، فقد كان الأمير دائماً يعد الإمارة ضيعة له، ولعل أميراً لم يحز من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائمه في الهند، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة، وهو يمد حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى. ويكفي أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يحج إليه الهنود الوثنيون، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية. ويحصى العتبي في كتابه اليميني هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال^(٢). وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعاً العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال، غير ما كان يجبي لهم سنوياً من تلك الديار.

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون في خزائهم الأموال الطائلة، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغانم شتى، من أهمها

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي (طبع ليدن) ص ٤٤٩ وانظر في قصر بناء فخر الدولة بجرجان اليتيمة ٢٧١ / ٣.

(٢) اليميني للعتبي ٩٩ / ٢ وانظر في غنائمه من البويهيين المنتظم ٤٠ / ٨.

حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك في أسرهِ إمبراطورهم "ديوجينيس رومانوس" وافتدى نفسه بمليون دينار - كما مر بنا - ودفع له الجزية صاغراً. ويذكر ابن الأثير أنه زوج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نشر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير^(١). ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار^(٢). ويروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت في أيديه وأيدي أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سرياً من الذهب والفضة^(٣). وكان السلطان محمود السلجوقي مبذراً متلفاً، وأتلف فيما أتلفه ما وراثه من أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير^(٤). واحترقت له دار في سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته "مالا حد له من الجواهر والحلي والفرش والثياب، وأقيم الغسالون يخلصون الذهب ما أمكن تخليصه، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر^(٥)".

وهذه أخبار متناثرة في كتاب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم في الترف والنعيم، غير حاسبين للشعب حساباً. ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة^(٦). وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جمعها وإنفاقها، وكان يقود الجيوش

(١) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس - طبع دار صادر بيروت) ١٠/٧٠-٧١ وكان صدقات الأميرات البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ٩/١٠٥، ١٠/٤٧١).

(٢) المنتظم ٧/٩.

(٣) ابن الأثير ١٠/٥٠٧.

(٤) زبدة النصر للبنداري مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني (طبع ليدن) ص ١٤١.

(٥) ابن الأثير ١٠/٥٩٤.

(٦) اليتيمة للثعالبي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٤/٢٣٠.

بنفسه، على نحو ما كان وزيراً بني بويه: ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس. وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يعد بالعشرات وأحياناً بالآلاف^(١)، فكان إذا سار برز للناس في موكب باهر من الحراس. وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ. وهياهم ذلك ليبنوا القصور الباذخة، على نحو ما يحدثنا الثعالبي في كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد^(٢)، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال^(٣)، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفتطرها، وكانت صلاته وصدقاته وقربانه في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٤). وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم، فقد كانوا يطلبونه في خدمتهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم، ومن طريف ما يروى من ذلك ما ذكره الثعالبي عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخبز (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه في داره، وألم به أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخبز الفاخرة الملونة، فأنشده على البديهة^(٥).

كسَى لم يَحُلْ مثلها ممكنا

كسوت المقيمين والزائرين

ضروب من الخبز إلا أنا

وحاشية الدار يمشون في

(١) ابن الأثير ١٠/١٣١.

(٢) اليتيمة ٣/١٥٨.

(٣) اليتيمة ٣/٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في جرجان اليتيمة ٤/٣٦.

(٤) اليتيمة ٣/١٩٣.

(٥) اليتيمة ٣/١٩١.

وكان صاحب أكثر من إهداء الخلع إلى زواره، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله، حتى أمر له من الخبز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعامة ومنديل ومطرف (ثوب) ورداء وجورب. وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة، ويروى أن أبا جعفر والي سجستان تأثق في قصر بناه لنفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه^(١):

من سرَّ أن يرى الفردوس عاجلةً فليُنظر اليوم في بُنيان إيواني
أو سرَّه أن يرى رِضوان عن كَثَبٍ بملء عينيه فليُنظر إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين. ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأنافتهم، ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين العبدوني الشاعر فينشد^(٢):

أَكْتَابَ دِيوانِ الرِّسائلِ ما لكم تَجَمَّلْتُمْ بل مُتَّمُّ بالتَّجَمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم. وكان للقواد مكانة كبيرة، وكأنها كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق. ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشعراء والناس، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً^(٣):

أَكُلْ مَنْ كان له نعمةٌ أوسع من نعمة إخوانه

(١) يتيمة ٣٣٨ / ٤.

(٢) يتيمة ٧٧ / ٤.

(٣) يتيمة ٩١ / ٤.

مَشْرَفٌ شَيْدٌ بِأَرْكَانِهِ^(١)

أُمُ كُلٍّ مَن كَانَ جَوْسَقٌ^(٢)

يَبْذُلُهَا فِي بَعْضِ أَحْيَانِهِ

أُمُ كُلٍّ مَن كَانَ لَهُ كَسْوَةٌ^(٣)

عَلَى أَدَانِيهِ وَخِلَانِهِ

يُرَى بِهَا مُسْتَكْبِرًا تَائِهًا

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يغدقها الأمراء على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة. وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول. وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد، حتى إذا كنا في هذا العصر تفاقم أمره، حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة^(٤)، وظل ذلك بعد عصر بني بويه، بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين: قرية أو أكثر أو أقل، كل على قدر إقطاعه^(٥). وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان، وأعد بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى، بل أحياناً الولايات، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها، ويأخذ لنفسه أضعافه، وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة. وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب، وكان حسب الشخص ضيعة واحدة ليكون ثرياً، وصور ذلك المعافي بن هزيم شاعر أبيورد قائلاً

:(٤)

(١) الجوسق: القصر.

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلون نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي) ٣١٧/٤ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين في العصر السلجوقي أن نرى في همدان زيدا الحسن العلو ي دفع إلى السلطان محمد السلجوقي سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو يستدين ديناراً (ابن الأثير ١٠ / ٤٧٤).

(٤) يتيمة ١٣٢/٤ والظئر: المرضعة.

كفّنتي ضيّعتي مدح العبادِ وظعنًا في البلاد بغير زادِ
 غدت سَكْنِي وخادمتي وظئري وفيها أسرتي وبها تلادي
 صديقُ المرء ضيّعتهُ وكم من صديق في الصداقة مستزادِ
 يخونك في المودة من تَوَاحِي ومالك لا يخونك في الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات، مما أعد لنشوء طبقة أرسقراطية واسعة، كانت تنفق عن سعة، وكان كثير منها جواداً ممدحاً، ويلقانا ذلك بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تمدح أمداحاً كثيرة، وحقاً قال بشار:

يسقط الطيرُ حيث يَنثَرُ الحـ بٌ وتُغشى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً في أن نلتقي بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة.

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يقدرها الأمراء أو وزراءهم. ويدخل في هذه الطبقة عمال الحسبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين، وكانو دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزي^(١):

وَيْلٌ لِمَنْ عَدَلَهُ الْقَاضِي وَاللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ بِالرَّاضِي
 تَمْضِي الْقَضَايَا بِشَهَادَاتِهِ وَهُوَ إِلَى النَّارِ غَدًا مَاضِي

وينتظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموال ضخمة، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة. ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يغدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا، ومثلهم المغنون والمغنيات،

(١) يتيمة ٣/ ٤٢١.

ودائماً نلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء.

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهي التي كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسد به رمقه، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن. وكانت حياتها كلها عرقاً وعتناً ومشقة لكي تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب.

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة، ويروى أنه وقعت في شیراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين^(١)، ولم تكن الحكومات تتدخل في شعائهم ولا في شعائر النصارى واليهود، وكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوماتهم، وكانوا يدفعون، نظير ما يتمتعون به من تسامع واسع، الجزية، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطني إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح، ولم تكن تؤديها النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس. وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطي الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثني عشر درهماً، وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى، وكان علي بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً^(٢)، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخرازون.

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى في الملبس والمطعم، فكانوا يلبسون الدراريع وهي ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسراويل والحلل المطرزة. وكانوا يلبسون الخنز صيفاً والفراء والصوف شتاءً كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية

(١) ابن الأثير في سنة ٣٦٩.

(٢) ابن مسكويه ٥/٤٦٤.

والصوفية والحريية. وكانت النسائر حرائر وجواري أكثر تفنناً في أناقتهن، فكن يلبسن الإستبرق والسندس والوشى، وكن يتحلين بالجواهر النفيس من كل صنف، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية.

ومضوا يتفننون في المطاعم، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء، مما جعل كثيرين يعنون بالتأليف في كتب الأطعمة، مثل ابن مسكويه، الذي أحكم كتابه فيها غاية الأحكام وأتى منه بكل غريب حسن^(١)، ومثل ابن خلاد القاضي الذي أهدى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة، فأجابه بقصيدة طويلة عدد فيها كثيراً من أنواعها التي ذكرها في كتابه^(٢). وعرفوا حينئذ توالي ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع. وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعد الفاكهة والحلوى من كل صنف.

وكانوا يمكنون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء، وكانوا يستطيعون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللبابة في أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب. ومن قديم تقترن الخمر بالغناء في إيران، حتى ليروى صاحب الشهنامه في تربية قورش الملك الإيراني القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقياً، وكأنها كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور^(٣)، وطبيعي أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر، بحيث يشترك في المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة^(٤) والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد^(٥) والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروي^(٦). وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب^(٧). وكان يحى بعضهم بعضاً

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٣٢.

(٢) يتيمة ١٦٨/٣.

(٣) انظر الشاهنامه نشر د. عزام ١/٣١٣ و تراث فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣.

(٤) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ وانظر في عضد الدولة ومجالس شرابه يتيمة ١/٢١٨ وابن الأثير (طبعة دار صادر - بيروت) ٢٠/٩.

(٥) ابن الأثير ٦/٦٧٦.

(٦) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) ٢/١٦٧.

(٧) يتيمة ٣/٢٤٤.

بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب، يقول عبدان الأصبهاني^(١):

سَقَيْتُ وَفِي كَفِّ الْحَبِيبَةِ وَرْدَةً وَأَتْرَجَةً تُغْرِِي النَّفُوسَ بِصَوْنِهَا

مُدَاماً فَلَمَّا قَابَلْتَنِي بِوَجْهِهَا شَرِبْتُ فَحَيَّتَنِي بِلُونِي وَلُونِهَا

وبلغ من تفشي الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيه على المغنيات والراقصات^(٢)، وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد^(٣) المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتون وعيد الشعانين، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء^(٤):

سَقِيّاً لِدَهْرٍ مَضَى إِذْ نَحْنُ فِي شُغْلٍ بِالْعَزْفِ وَالْقَصْفِ عَنْ شُغْلِ السَّلَاطِينِ

إِذْ يَوْمُنَا يَوْمُ عِيدٍ طَوَّلَ مُدَّتَنَا وَلَيْلُنَا كُلُّهَا لَيْلُ الشَّعَانِينِ

وكانوا يطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المجوسي من مثل عيد السدق، وهو عيد لاشتعال النيران، وكان يقع في شهر يناير من كل عام، ويصور البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦، فيقول: "اقترب عيد السدق، فأخذوا يجمعون له الطرفاء وعيدان الخطب، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجلبل ارتفاعاً، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم هذا العيد من الحاجيات، وحل العيد وجلس السلطان في مخيم له، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران، وكانت ترى على بعد عشرة فراسخ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش، فكانت تجري وقد علقت بها النيران"^(٥). وكان أهم من هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع، وكان موسماً

(١) يتيمة ٣/ ٣٠٠.

(٢) المقدسي ص ٤٤١ وتحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٢٧٩.

(٣) انظر في احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٥.

(٤) يتيمة ٤/ ١٤٩.

(٥) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة الأنجلو) ص ٤٧٠-٤٧١.

كبيراً للمجون والشراب. ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام. ويقول البيهقي: "كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة.. ويجتمع أعيان الدولة والأمراء ومجلس الندماء، ويبادرون إلى اللهو، وتدور أقذار الشراب، وتعزف آلات الطرب، ويأخذ المغنون في الغناء"^(١).

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرْد، وكان فخر الدولة البويهية مولعاً بالصيد^(٢). ومثله ملكشاه السلجوقي، ويقال إن صيده بلغ في بعض الأيام سبعين غزالاً^(٣). وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالنرد والشطرنج، وكانوا يشغفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء. ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهي في خراسان وإيران عامة أن نجد كيكائوس في القرن الخامس الهجري يفرد في كتابه: "قابوسنامه"^(٤) فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهي، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية.

(١) البيهقي في سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩.

(٢) ابن مسكويه ٦/٣٨٦.

(٣) براون (ترجمة الشواربي) ص ٢٢٨.

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية.

التشيع^(١)

يقوم التشيع - كما مر بنا في قسم العراق - على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة، فهي ليست مفوضة للأمة، بل هي خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت، من الأئمة، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية. وتتفق الشيعة على أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة بالقرب من غدير خم بين مكة والمدينة، وهم فرق كثيرة، أهمها ثلاثة: الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية.

والزيدية - كما مر بنا في قسم العراق - أقربهم إلى أهل السنة، وهم يتنسبون إلى إمامهم زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وكانوا يقرون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمون مع وجود العلوي الأفضل، وبذلك لم يطعنوا في الصحابين الجليلين: أبي بكر وعمر ولا في ولايتهما أمور الأمة. وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثنى عشرية، ولا بنظرية الإمام المستور مثل الإسماعيلية، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن. وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة.

ومر بنا في قسم العراق حديث مفصل عن فرقة الإمامية الاثنى عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين، وترى أنها تتابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه علي زين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، وتفرق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مر بنا في العراق، إذ ترى أن الإمامة

(١) بجانب مصادر التشيع المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير في الدين للإسفرائيني وفرق الشيعة للنوبختي ومقدمة ابن خلدون وفصائح الباطنية (الإسماعيلية) للغزالي واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي وبراون (ترجمة الشواربي) في مواضع متفرقة.

بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده: علي الرضا، فمحمد الجواد، فعلي الهادي، فالحسن العسكري، فمحمد المهدي الذي اختفى، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثنى عشرية، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملاً الأرض عدلاً وعلماً، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان.

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضنا له في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ تجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب، لا يعتريه خطأ. وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب، كما يؤمن الزيدية، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي ينتقل فيهم من إمام إلى إمام، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم.

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان قد توفي قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير، بل يرثه عنه ابنه الأكبر، حتى لو توفي في حياة أبيه كما توفي إسماعيل، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة، وهم مستترون مختفون، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها، فظهر الإمام في شخص عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا.

وتسمى هذه الفرق باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثنى عشرية، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعة، والسابع أعلامهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها، حتى رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كبرت كلمة تخرج من أفواههم. وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلي، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض، وهي النظرية التي بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية في موسوعتهم المشهورة. ومن تنمة نظريتهم أن العقل الكلي الذي يتجلى في أئمتهم تجلى

منذ آدم في الأنبياء، وهو الذي يسير الكون ويدبره، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمي الإسماعيلي يعتقد أن التجسد الإلهي تمثل فيه وأنه خليق بعبادته. ومات مقتولاً، فادعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً، وأنه سيرجع. وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية في شخص الحاكم. وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته، وأنه الإمام الغائب المنتظر. وواضح أن الإسماعيلية غلت في تشيعها غلوّاً بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكريه يسمونهم دهرية زنادقة، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة في كتابه "فضائح الباطنية" الذي سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادة الإسلام، ولا بد أن نشير إلى أن تابعي هذه الفرقة كانوا يصعدون في سبع مراتب: مرتبة للعامة، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة. ومن حق الإسماعيلي والإمامي جميعاً أن يخفيا عقيدتهم في البلد الذي يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية، وقد طبع دعوتهما في حق وأماكن كثيرة بطابع السرية.

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة، فقد كان زيد بن علي مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال. وتعانق منذ العصر العباسي الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال في أثناء الجدل الذي كان دائماً بين أعلامها حتى لنجد النظام المعتزلي المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام، وكان يعاصره ثمامة بن أشرس الذي لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون في حمله على أن يكتب إلى الأفاق بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وجميع الصحابة. ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طويلاً للحديث عن التوحيد والعدالة، على غرار ما يصنع المعتزلة. وفي رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هي التي جعلت أهل السنة في العصر ينفرون منه، ويعتقون المذهب الأشعري.

وكانت إيران في هذا العصر تعد أكبر مركز للتشيع، وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم، وعلى الرغم من إجهاز الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة. وكان تقلد البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقة إلى الانتشار، واشتهرت مدينة "قم" باعتناقه وقد ظل منتشرًا بها واعتنقه كثيرون في الحقب التالية، وقبض له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة "قم" وخلفه في مشيخته، وألف كتباً كثيرة في المذهب، محتجاً له، داعياً إليه، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية.

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١-٣٣٢هـ) مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به. ويبدو أن الإسماعيليين جدوا حينئذ في نشر دعوتهم بإيران، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولي على الري من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويلاً، يقول فيه^(١):

"قد أزال الله عن هذه البقعة أيدي الظلمة، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة، والمبتدعة الفجرة. وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقمع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار. وطلعت الرايات بسواد الري.. وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرف أحوالهم، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد، فيجب عليهم القتل والقطع والنفي على مراتب

جناياتهم. واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسود بها الوجوه يوم القيامة: التشيع والرفض والباطن. وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام، ولا يميزون بين الحلال والحرام، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة، ويعتقدون ذلك ديانة... ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء، ويعتقدون مذهب الإباحة في الأموال والفروج والدماء".

والخطاب طويل، وهو يصدر مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد، حتى كان أصحابها لا يؤدّون شعائر الإسلام، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة. وليس ذلك فحسب، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحل صاحبها "مزدك" النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات^(١). ونمضي بعد عهد محمود الغزنوي، فنجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، إذ تعهدا هناك دعاة مختلفون، كان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً، واستطاع أن ييسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس. وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة، ولكن دعائها ظلوا منبثين في أنحاء إيران، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة، الذي لقبه أتباعه بلقب "حجة خراسان" وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات، وعاد إلى وطنه خراسان، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات "سمنجان". وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذي نهض بالدعوى في أذربيجان وأصفهان، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى "شاه دز" جعله وكرّاً لأتباعه ودعوته. وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر، وتلقن الدعوة عن بعض دعايتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم في مدينة الري، ويقال إنه لقي بها في رمضان سنة

(١) انظر كتابنا العصر العباسي الأول ص ٨٠.

٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين. ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه. ويقال إنه سأله من الخليفة بعده؟ فأجابه ابني نزار الأكبر، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار، وولى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين: شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار.

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح، حتى ضمت بين جناحيها كرمان وطبرستان والدامغان وقزوین، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية المناعة، هو قلعة "الموت" سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العقاب، كأنها، لعلوها الشاهق، وكرله. وجعله استيلاؤه على هذه القلع يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثلها في إيران، فاستولوا على "خالنجان" باقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من "شاه دز" واستولوا على "طَبَس" و"قاين" و"تون" و"رُوزن" و"خور" و"خوسف" في قهستان وعلى "شمكوه" بجوار أبهر، وعلى "أستوناوند" في مازندران، وعلى "أردهن" و"کردكوه" وقلعة الناظر في خوزستان، وعلى "قلعة الطنبور" بجوار أرجان، وعلى قلعة "خلادخان" في فارس. وكان تملك الحسن بن الصباح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً، حتى إذا توفي المستنصر ظلوا يدينون لنزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين. وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم - على الأقل - كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش. ومضوا يدعون سراً لعقيدتهم، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلتهم "الموت" على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثرونه من رعب على مرالسنين، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامي الوزير السلجوقي وللفقيه عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد الهروي في همذان. وكان

السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ هـ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ هـ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك. وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان، غير أنه لم يكن ييارح قلعة "الموت" وبها توفي سنة ٥١٨ هـ للهجرة. وخلفه في رئاسة الطائفة كيا بزرگ حميد ثم ابنه محمد، وتبعهما دور ظهور الأئمة من أحفاد نزار، إذ ظلت في أيديهم مقاليد السلطان والدعوة، وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري دك حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣-٦٥٥ هـ) وبقتله وتخطيم حصون أتباعه ينتهي عهد الإسماعيلية بإيران، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقي إلى الظهور في الهند، ويتخذ أصحابه "آغاخان" رئيساً روحياً لهم، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذي كان آخر أمراء قلعة "الموت".

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السني، وينعكس ذلك على العلماء والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم، مثل الشيخ سعدي الصوفي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ هـ وله شعر عربي قليل. ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧-٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامي الاثنى عشري عاماً في إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة. وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم.

ويحتفل الشيعة وفي مقدمتهم الإمامية من قديم - كما مر في العراق - بعيدين: عيد الغدير، يريدون غدير خم، وموعده الثامن عشر من ذي الحجة، وهو الغدير الذي يروون أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى عنده لعلي بالخلافة من بعده قائلاً له: أنت مني بمنزلة هرون من موسى، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة، وكان أول احتفال لهم به في عهد البويهيين، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين. أما العيد الثاني فكان مأتماً كبيراً، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً

على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة. وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير، حتى ليرجعه البيروني إلى زمن بني أمية، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السروح والفرح، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأواني والثياب^(١). وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير، يتراءى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفافة ظامئة وعيون ساهمة باكية، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حاراً مصورين بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد في أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء. وصبغ ذلك الحزن العميق في تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنات.

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم في العراق سنة متبعة، وأصبح للأماكن والأضرحة التي دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم، مما جعل البويهيين يهتمون بها، ولعل في هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر علي بن أبي طالب بالنجف، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به، كما دفن به أيضاً ابنه شرف الدولة وبهاء الدولة^(٢). واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين، وبنى حوله حضرة جليلة^(٣). ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام في كل عام، يقيمه إمامية إيران والعراق.

(١) الآثار الباقية للبيروني (طبعة أوروبا) ص ٣٢٩.

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر بيروت) ٩/ ١٨، ٦١، ٢٤١.

(٣) المنتظم ٧/ ١٤٩.

الزهد والتصوف^(١)

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثهم، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة. وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك، وقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد، وسترى من ظل صائماً طول حياته، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً، ومن يدقق في أحكام الشريعة مبالغاً تخرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه وتجرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدق فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبناً وهو في المهد، فقلبه، ليرده، حتى لم يدع في باطنه شيئاً، قائلاً: هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف في شيء من لبنها. ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت - من بعض الوجوه - لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليعصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم:

(١) راجع في الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمي وحلية الأولياء لأبي نعيم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وصفة الصفوة لابن الجوزي وقوت القلوب للمكي ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبية الغافلين للسمرقندي وطبقات الشعراني، وانظر جولد تسيهر في كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام" ونيكلسون في كتابه "في التصوف الإسلامي وتاريخه" ترجمة أبو العلا عفيفي والملازمة والصوفية وأهل الفتوة لعفيفي وآدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

" صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب، ومواجهته مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع، ومفطرة الصدور بالتخويف والتفزع"^(١).

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة، وكان من مظاهر ذلك كثرة الربط المنظمة منذ القرن الرابع الهجري، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب، وكأن زوايا المتصوفة كانت تبنى لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام. واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة، وكأنها أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت. ويقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان في إسييجاب فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمئة رباط، بينما كان في بيكند ألف رباط^(٢)، وهي ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون. وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنابا كان ببقية الثغور. ويذكر الحجويري الأفغاني أنه لقي ثلثمائة من ماسيخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته^(٣).

ويشير المقدسي إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر، وهي بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة، وهيات هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقته وينشرونها، وكانوا يمنحون مريديهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة، بل كل الحياة وزخارفها، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله، وفي مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباحها ونبذ متعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج، ويحث أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦٩/٥.

(٢) أحسن التقاسم للمقدسي ٢٧٣، ٢٨٢.

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويري - الترجمة العربية - للدكتور إسعاد عبد الهادي (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ٣٩١/١.

عن الزواج أن يظل أعزب^(١) حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً. وحتى المرض ينبغي أن لا يهتم به الصوفي فيعرض نفسه على الأطباء للتداوي، فالطبيب هو الله، وهو جانب من عقيدتهم في التوكل على الله حق التوكل، حتى ليهمل الصوفي كل تصرف شخصي، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه، فلا يفكر في رزقه ولا في قوته ولا في غده ثقة في الله. ودائماً يرددون ذكر الله، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم في صفين متقابلين، وهي تذكّر الله، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً ويساراً، ومنشد ينشد في أعلى الصفين، وفي أثناء ذلك يهيم نفر منهم ويتشي، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يروي رياً مسكراً بجمال الذات الإلهية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد، عن كل إرادة، لمحبوها الرباني، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذي يذيب الصوفي في الجمال الرباني ويجعله يفنى فيه في وجد لا يماثله وجد.

ومنذ الحلاج الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلى فيهم كما يتجلى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في أنفسهم، أو كأنما يحل فيهم، مما هياً لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة، وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسع الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧-٤٤١ هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين في عصره، وكان يعلى عمل الصوفي بقلبه على أداء فرائس الإسلام وأحكامه، وفي ذلك يقول ابن حزم: "إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع.. وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلال"^(٢). وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل بعضهم في آراء ضالة،

(١) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) الفصل لابن حزم ٤/ ١٨٨.

حتى ليعتق بعض آراء المزدكية في العكوف على الخمر واستحلال المحرم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدمهم على الرسل والأنبياء، يقول ابن حزم: وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كله من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلت له المحرمات كلها.. وقالوا إننا نرى الله ونكلمه، وكل ما قذف في نفوسنا فهو حق"^(١).

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران يضعف عندها الوازع الديني ويشيع عنها إهمال فرائض الإسلام، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكرامية بخراسان وما وراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا، دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلين فوطاً على رؤوسهم تحيط بها قلانس طويلة، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال: التقى والعصية والذل والكدية أي التسول^(٢). ومثلهم الملامتية، وكان مبدؤهم الأساسي الملامة، فالصوفي الكامل في رأيهم من يرتكب أشياء يلومها عليها الناس، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع، وقد ينتهكون فيها حرمة، حتى يتم لهم مبدؤهم، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحل الذين يعيشون على التسول، ويتخذونه ذريعة للبطالة، وكأنما أصبح الصوفي هو المتسول، ولا بأس من أن يسقط عنه الفروض الدينية أحياناً.

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء، متهمين لهم بالزندقة والكفر، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجوده يتردد على ألسنة المتصوفة وفي كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفي بالذات الإلهية، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله، ويرون أن الصوفي لا يبلغ مرتبة الكمال إذا أدى الفرائض والسنن، مخلصاً صادقاً. غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة

(١) الفصل ٤/ ٢٢٦.

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤١.

إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبي سعيد بن أبي الخير، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره.

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم، وكان لابد أن يُرأب، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة، ففيض الله لها صوفيين عظاماً، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج^(١) عبد الله بن علي الطوسي الزاهد صاحب كتاب اللُّمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمي تلميذه في كتابه "طبقات الصوفية": "كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة". فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل في الحلول وما إليه، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية. وكان رحالة تجول في العالم الإسلامي من نيسابور إلى القاهرة، ووفد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش. ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يعد مؤسس مدرسة التصوف السني في عصره، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة، وليس فيه حلول ولا شطحات. ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللُّمع الذي أشرنا إليه، وفيه يفيض في الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم. وتلقن عنه المذهب في نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمي، ولقنه بدوره عبد الكريم^(٢) القشيري النيسابوري، وتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبي علي الدقاق، وكان متصوفاً سنياً، فوصل تلميذه بهذا التصوف، بل ملأ قلبه به حماسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفي وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول. وما توافي سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التي طوفت الآفات غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية في البلدان الإسلامية، ليصحح لهم أفكارهم عن

(١) انظر في أبي نصر السراج الطوسي طبقات الصوفية للسلمي وكشف المحجوب للهجويري وشذرات الذهب ٩١ / ٣

وكتابه اللُّمع (نشره نيكلسون في سلسلة جب التذكارية).

(٢) انظر مصادر ترجمة القشيري في الفصل الرابع من هذا القسم.

التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السني الحقيقي وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم، مما يصل التصوف وصلًا وثيقًا بالشرعية، وهو يستهلها بقوله:

"اندرست الطريقة بالحقيقة، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى إتباع الشهوات، وقلة المبالة بتعاطي المحظورات، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه، وهم حو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية".

وبهذه الرسالة العظيمة التي شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيري الحواجز التي كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمية، فالتصوف ليس خصمًا للشرعية، بل هي قوامه وصراطه الموصل إليه وأساسه وعماده. ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكامًا وثيقًا، وهو أيضًا نيسابوري، أصله طوسي حقًا ولكنه تلقن التصوف السني في نيسابور حيث مدرسته الكبرى: مدرس أبي نصر السراج والقشيري، ونقصد أبا حامد^(١) الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم، وسرعان ما أصبح شيخًا يشار إليه بالبنان، وأكب

(١) انظر في الغزالي المنتظم ١٦٨/٩ واللباب ١٧٠/٢ والوافي بالوافيات ٢٧٤/١ وابن خلكان (طبعة دار صادر) ٢١٦/٤ وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١/٦) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورض ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسيهر القسم الرابع وفي التصوف الإسلامي لنيكلسون ترجمة عفيفي ص ١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة في نظر الغزالي لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر).

الطلاب على دروسه. وأخذت شهرته تطبق الآفاق، وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي، فعينه أستاذاً للفقهاء الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج، وولى وجهه نحو الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخلص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء، وأن من شأنه أن يززع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول. وبالمثل حمل على الفلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء في كتابه "تهافت الفلاسفة" وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية، ووجه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه "فضائح الباطنية". وهدته تأملاته في عزلته إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطني، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل. وألف على هذا الهدي كتابه "إحياء علوم الدين" محلاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه، ونقصد التصوف السني الذي أقام هو والقشيري السراج بنيانه، والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول. وقد جعل القلب أساس السعي إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه، وحقاً لا بد أن تؤدي الفرائض والسنن، ولكن لا بد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه، إذ هو جوهر الحياة الدينية. وبذلك وصل الغزالي وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجأ في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر في شباك الحلول، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعممة بالإخلاص. ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية، وهي تبدو واضحة - كما يقول نيكلسون^(١) - في كتابه "مشكاة الأنوار"

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٤٦ وما بعدها.

وكان الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية. وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذي يتمثل في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد تكاملت للغزالي هذه النزعة الصوفية في أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات، عاد بعدها إلى بغداد، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقه أو علم الكلام، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه "الإحياء". وراجع إل موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة وتركه إلى طوس مسقط رأسه. وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء "وخانقاه" للمتصوفة، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبي نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشرعية مزاجية بقيت على مر العصور التالية، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوماً عنيفاً جعلها تسقط أمام التصوف ووصولاً.

وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامي، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفي انتهى، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السهروردي^(١) الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكتب على كتب التصوف والفلسفة. واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع. ومن أصحاب التصوف الفلسفي بعد السهروردي صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشراقي على نحو ما يتضح في كتابه "الأسفار الأربعة".

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون، من أهمها طريقة النقشبندية، وكان تيمورلنك يرفع أهلها، كما مر بنا في القسم الخاص بالعراق، وعاصرتها طريقة البكطاشية، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفي. وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في

(١) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردي في ترجمته في الفصل الرابع من هذا القسم.

الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الروي (٦٠٤-٦٧٢هـ) والشيخ سعي الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية، وخلفه الصوفي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ وفي الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة.

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطاً عظيماً، فمن تعليم للناشئة في الكتاتيب إلى تعليم للشباب في المساجد، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئاً من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار. أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم. وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد، ويتحلق الطلاب حوله، وهو يملئ عليهم محاضراته. وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ، فينهض مُسْتَمَلٍ بترديده، حتى تسمعه تلك الصفوف. وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات الفقهاء والمحدثين. ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجراً على دروسه، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل.

ولا نبالغ إذا قلنا أن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يعدان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ، فقد مضى كل منهم يجهد جهداً بالغاً في أضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكي يبعثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق ما لم يحققه العلماء قبلهم. ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويجري الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء، فرغب الناس في العلم، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم، ووجد في تذكرة له: إذا

فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي الفارسي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم^(١). ويقول ابن الأثير: "كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي، والكناش الملكي في الطب لعلي بن العباس المجوسي، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصابئ إلى غير ذلك". وكان خلفاؤه من البويهيين يعنون بالعلم وأهله. وكذلك كان السامانيون، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر، وسيردد اسمها كثيراً فيما يلي من كلام. وبالمثل كانت الدولة الزيارية تعنى في طبرستان بالعلم والعلماء. ولم تكن تقل عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوة المعروف كل منهم باسم "مأمون خورازم" ويكفي أن نعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبو سهل المسيحي والطبيب ابن الخمار والرياضي أبو نصر بن العراق، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خورازم قبل استيلائه على إمارته، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته، ولباها ابن العراق وابن الخمار والبيروني، ورفضها أبو سهل وابن سينا، وولى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزياري صاحب طبرستان^(٢). وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي^(٣) بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته "غزنة" التي جعلها مركزاً من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدناً أخرى مثل هراة. وكثر حيثئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمرء، وكانوا أحياناً لا يخصصون بها أميراً واحداً، بل يتتبعون بها أمرء الدول والإمارات المختلفة، على نحو ما كان يصنع الثعالبي، فقد أهدى كتابه: "المبهج" و"التمثيل والمحاضرة" إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه: "النهاية في

(١) انظر المنتظم ١١٥/٧ وابن الأثير ٢١/٧.

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص ١١١.

(٣) انظر في ثقافته ابن تغري بردي ٢٧٣/٤.

الكناية "و"نثر النظم" و"اللطائف والظرائف" لمأمون بن مأمون أمير خوارزم، وكتابه "لطائف المعارف" للصاحب بن عباد وزير البويهيين، وكتابه "سحر البلاغة" و"فقه اللغة" للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور.

وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١ للهجرة^(١)، وفي أواخر القرن الرابع^٢ بنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فورك^(٣) المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة^(٤). وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس، إذ بنيت بها مدرسة^(٥) لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس^(٦): هي المدرسة البيهقية، ومدرسة الإسترابدي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي، والمدرسة السعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين، والرابعة مدرسة بنيت لأبي إسحق الإسفرايني.

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الري حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية، ولم يلبث أن وزر لهم في عهد سلطانه ألب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى ألب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه، وكان سياسياً بارعاً وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سماه "سياست نامه". وكان شافعي المذهب أشعرياً عدواً للإسماعيلية الباطنية، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس، عرفت كل واحدة منها باسم النظامية، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نحلة الحشاشين، ولنشر المذهب الشافعي والنحلة

(١) طبقات الشيرازي (طبع بغداد) ١٢١.

(٢) السبكي ٤/ ١٢٨.

(٣) السبكي ٤/ ١٥٩.

(٤) السبكي ٤/ ٢٩٠.

(٥) السبكي ٤/ ٣١٤.

الأشعرية. فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد. وجميعها تأسست حوالي سنة ٤٥٧ للهجرة، وكان يدرس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعري علوم التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذاً كبيراً. وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة، ورصد لطلابها نفقات مقدرة، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة. وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تغص بالكتب في كل علم وفن، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين.

والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيننا اهتمام الدولة والأفراد به، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب، وظل الاهتمام بها في هذا العصر، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية، فكانت هناك مكتبات الوراقين التي تعرض فيها الكتب للبيع، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقاً مستقلاً. وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية. وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقفه العلماء على طلاب العلم في الجوامع. وكان هناك رعاية للعلم بينون المكتبات لطلابها، مثل ابن حبان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب. ويروى أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في مدينة رامهرمز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها^(١).

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يشغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة، أولاهما مكتبة عضد الدولة، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله: "حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها، وهي أزج (بناء) طويل في صفة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قائمة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها

(١) المقدسي ص ٤١٣.

أسامي الكتب، ولا يدخلها إلا كل وجيه^(١). والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد، وكانت أكبر من السابقة، ويقال إنها لو حملت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير^(٢)، واتخذ خازناً لها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة، ويبدو أنه اتخذه خازناً- كما مر في ترجمته- بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي الفتح. والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالري، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد، إذ كان بها من كتب العلم ما يحمل على أربعمئة بعير أو أكثر. ويقال: كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الري عشرة مجلدات^(٣).

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزياريين والخوازميين، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذي كانت مجالسه تزدهر بالعلماء، وكان يحضر سباطه القشيري وإمام الحرمين وأبو إسحق الشيرازي، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفرايني المتوفى سنة ٤٧١. وقدم له إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني كثيراً من كتبه، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرس فيها عشرين عاماً إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمئة طالب وأستاذ^(٤). وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء، فيروى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمئة طالب^(٥). وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالاً منقطع النظر، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها، فقد كان عاماً في مدن إيران وم وراء النهر من أرض الشاش وفرغانة، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحاً لجميع، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها، لا

(١) المقدسي ص ٤٤٩.

(٢) ابن مسكويه ٢٨٦/٦ وما بعدها.

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٢٥٦/٦.

(٤) طبقات السبكي ١٨٤/٥.

(٥) التهذيب للنووي (طبعة وستفولد) ص ٣٠٧.

أوساط المثقفين فحسب، بل أياً أوساط العامة، يدل على ذلك من بعض الوجود ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش "كتبوا إلى ابن سريج إمام الشافعية ببغداد يعلمونه أن الناس في ناحيتهم أرض الشاش وفرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفتيا، ويأسلونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) وداود بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي، فكتب القاضي لهم الرسالة"^(١).

فالثقافة الفقهية لم تكن وفقاً على الفقهاء وتلاميذهم، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفرعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى: الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب، بل أيضاً تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني. ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقفت عليه العامة فيما وراء النهر. وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس، ولا تخص الرجال بل تعم النساء، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الإثبات، ويذكرن في تراجم بعض المحدثين وينص على أنهم حملوا الحديث عنهن، منهن كريمة المروزية، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري، وسمع منها أيضاً بمكة سعد الأسد آباذي^(٢)، فهي لم تحدث في موطنها فحسب، بل حدثت أيضاً في مجمع العلماء بالحرَم المكي، وبأي كتاب؟ بأعظم كتب الحديث إسناداً: صحيح البخاري. ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة^(٣) بنت عبد الله البوشنجية، وهي من محدثات القرن الخامس الهجري، ومثلها فاطمة بنت أبي علي الدقاق شيخ القشيري في

(١) السبكي ٤٥٧/٣.

(٢) السبكي ٣٨٣، ٣٠/٤.

(٣) السبكي ١١٨/٥.

التصوف، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون^(١). ومن محدثات القرن الخامس أيضاً كريمة^(٢) بنت محمد، وشهادة^(٣) بنت أحمد. وهن جميعاً أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران. ومن تنمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية، موزعين الكتب على علومها المختلفة، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتاباً موسوعياً هو "مفاتيح العلوم" ويهديه إلى أبي الحسن العتبي وزير الأمير نوح الساماني الثاني (٣٦٦-٣٨٧هـ) وكان يعيش في رعايته بنيسابور، والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها، وهو مقالتان: المقالة الأولى في علوم الشريعة وما يتصل بها، والمقالة الثانية في الفلسفة وعلوم الأوائل.

(١) السبكي ١١/٥.

(٢) السبكي ٩٥/٥.

(٣) السبكي ٦/٧١، ٧٣.

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا في كتابي العصر العباسي: الأول والثاني عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات في الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات في الرياضيات والطبيعية. وسرعان ما شارك العرب في كل ما ترجموه، سواء في النظريات الفلكية أو في العلوم الطبيعية، وقد سارعوا في نقل كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري وهو في الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة وكتب أرسطو في علمي الحيوان والطبيعة وفي المنطق وكتب جالينوس وبقرط في الطب، وترجموا أيضاً لأفلاطون وغير أفلاطون كتباً مختلفة. وقد ذكرنا في كتابي العصر العباسي أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه، وعرضنا ذلك كله عرضاً مستفيضاً. وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة في جميع الميادين العلمية، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ في الرياضيات دوت شهرتهم فيما بعد في عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمي الذي يفتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب، ومثل جابر بن حيان الكيميائي المشهور، ومثل محمد بن زكريا الرازي ذائع الصيت في عالم الطب الذي اكتشف في وضوح فرق ما بين مرضى الجدري والحصبة ووضع أسساً واضحة للطب النفسي. وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون. ويلمع اسم الكندي فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون، ويلمع بأخرة من العصر العباسي الثاني اسم فيلسوف كبير هو الفارابي الذي مزج في فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً، مصطفىاً لأمتة نظريات فلسفية جديدة.

وباتتهاء العصر العباسي الثاني ينتهي عصر المترجمين العظام، وندخل في عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبية، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان

من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيروني المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة.

وابن سينا^(١) أكبر فلاسفة الإسلام، ويلقب بالشيخ الرئيس، وقد احتفظ ابن أبي أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخاري في أيام الأمير الساماني نوح بن منصور وتولى التصرف للسامانيين بقرية خرميش، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخاري وعني بتربيته فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن، وأقبل على دراسة الفقه. ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناطلي، وكان يقرأ معه إيساغوجي وكتاب أقليدس والمجسطي، ويراه لا يفهمها حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه. وأكب على علوم الأوائل والطب، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً في السابعة عشرة من عمره. واستغلفت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتاباً للفارابي، حل له مستغلقاتها. وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته، ويكون شفاؤه على يديه، فوظفه عنده ويغدق عليه من أمواله. ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل. ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخاري إلى خوارزم، ونزل بعاصمتها "خيو" عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني. وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء في بلاط أمير خوارزم،

(١) راجع في ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقي ص ٥٢ والفقطي ص ٤١٣ وابن أبي أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢/٢٩١ وتاب لكارادي فوعنه (طبع باريس) ومقاتله عنه في دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبه ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ ويراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي) ص ١١١، ١٢١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدومبيلي ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنواقي. وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها في كتابنا "الترجمة الشخصية" طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا في العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة، وهو عدد خاص بعبده الألفي.

فأرسل إليه في طلبهم، كما مر بنا، وأبى ابن سينا أن يذهب إليه، وأخذ يتنقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير، فأكرمه وأنزله منزلة عليا، حتى إذا قتل سنة ٤٠٣^{هـ} ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه. وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمدان سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م وقبره معروف بها إلى اليوم.

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، وأكثر مؤلفاته بالعربية، وله مؤلفات بالفارسية، وأيضاً له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي، وله قصص فلسفية كقصّة سلامان وأبسال وقصة حي بن يقظان ورسالة الطير. ومصنفاته تعد بالمئات، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات. وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعةاتهم حتى القرون القريبة، وقد ترجموه إلى اللاتينية، ويقال إنها طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر. وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة.

وابن سينا يتأثر بأرسططاليس، وحاول جاهداً أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام. ونحا في كثير من أفكاره نحو الفارابي، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله، لأنه منزّه عن كل مادة وكل جسم، والله واحد من كل وجه، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة، وإلا اختلفت الجهات في ذاته. وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول. وعن هذا العقد يصدر عقل يدبر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك، وأخيراً العقل الفعال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية، وطبيعي أن لا يرتضي أهل السنة والمعتزل منه هذه آراء، وإذا نحيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء، فيقول إن كل ما في الوجود خيراً كان أم شراً بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر. وكان يرى أن من الموجودات ما هو

محض كالأمر العقلية والسمائية، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود الأرضي والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد.

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاه النفوس الكاملة التي تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعد الموت بطلاناً للجسم، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلي، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفاً. وفي ذلك يكون الثواب والعقاب.

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة، فيمزجها بالتصوف الذي تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى في الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصته "حي ابن يقظان" و"سلامان وأبسال" وسنلم بهما في الفصل الأخير. وفي الأولى يعود حي بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية، بينما يتخلص أبسال في الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلاً في اللذات العقلية وما يطوى فيها من لذات الصوفية الروحية. ويوضح ذلك في كتابه الإشارات، فيقول عن الصوفي ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس اله مستديماً لإشراق نور الحق على نفسه، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لا رهبة من عقابه ولا رغبة في ثوابه.

والبيروني^(١) هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيرون، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته، ويبدو أنه تلقن معارفها الأولى بخيوه، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقهما حذقاً رائعاً، وشغف في أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم، ولم يكد يتدرج في العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طبرستان حيث عاش في رعاية أميرها قابوس، وإليه قدم أول كتبه: "الآثار

(١) انظر في البيروني تمة صوان الحكمة للبيهقي ومعجم الأدباء ١٧/ ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتي سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١، ١٢١ وكاجوري في تاريخ الرياضيات ومادة بيروني في دائرة المعارف البريطانية وكتاب العلم عند العرب لألدوميلي ص ١٨٨ وما بعدها ومقالاتي بروكلمان وفيدمان عن البيروني في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٤٥/١ وما بعدها.

الباقية عن القرون الخالية" الذي فرغ من تأليفه حوالي سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسائية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة، وقد طبعه سخاو في ليزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيروني وأعماله ومكانته. وكان قابوس متقلباً، فخشي البيروني على نفسه منه، وتركه إلى موطنه وميره فيه "مأمون خوارزم". وسمع به وبعلمه محمود الغزنوي، فطلبه من أميره، وأبدى البيروني - فما يروى - رغبته في الذهاب إليه، ويقال: بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوي على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة. وكان البيروني شيعياً ومحمود سنياً يضطهد الشيعة، فتحول البيروني إلى مذهبه، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته محمود. وكان محمود ما يني يغزو الهند على نحو ما مر بنا في الفصل السابق، فكان يسير معه، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة، تعلم في أثناءها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماءها، ودرس في عمق فلسفاتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة" وقد أتممه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوي بعامين. وفي الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود، وفيه وصف جغرافي مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارتهم في الفلك والتنجيم. ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس. ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق. ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفاتها، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس. وفي كل ذلك ينشر آراءه الأصلية التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة. ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية.

ومن مصنفات البيروني كتابه القانون المسعودي في الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف في الفلك والهندسة

والتنجيم، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفي أثر كل كتاب، صنف في تنجيم أو حساب، ويقول البيهقي إنه غرة في وجوه تصانيفه. وفي مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذي قدم إليه الكتاب وقد نشر في حيدر آباد سنة ١٩٥٣. وللبيروني كتب أخرى، منها كتاب في المعادن سماه الجواهر في معرفة الجواهر، أهدها إلى السلطان مودود الغزنوي، ومنها كتب في الطب وكتاب في الصيدلة نشره ماكس مايرهوف في برلين وكتب أخرى في الطبيعيات. وفي الحق أنه شخصية فريدة في تاريخ إيران العربية.

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر^(١) ستاني أبو الفتح محمد بن أبي القاسم المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم، واشتهر بكتابه الفريد "الملل والنحل" الذي ألفه في سنة ٥٢١ وهو في علم مقارنة الملل والأديان. وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سبباً في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب، فمنذ القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" الذي تحدثنا عنه آنفاً، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وخلفه الشهرستاني، فألف كتابه سالف الذكر عارضاً فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصار وبصر نافذ، وهو لا يباري في دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس القديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان.

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك، وقد تقدم العرب بهما في مطلع هذا العصر خطوات على نحو ما يصور ذلك ألدوميلي في كتابه العلم^(٢) عند العرب، ومن ناهيهم في القرن الرابع الهجري ممن تحدث عنهم أبو الفتح

(١) انظر في الشهرستاني وترجمته ابن خلكان ٤/٢٧٣ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣١٣ والسبكي ٦/١٢٨ والوافي بالوفيات ٣/٢٧٨ وشذرات الذهب ٤/١٤٩ ومروءة الجنان ٣/٢٨٩ ولسان الميزان ٥/٢٦٣ وعبر الذهبي ٤/١٣٢ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها.

محمود بن محمد الأصفهاني الذي نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس، وأبو جعفر الخازن الخراساني، وله كتاب في الفلك وصف فيه عدداً من آلات الرصد الفلكية، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة، وهو محلي بالرسوم، ويقول ألدوميلي إنه صحح فيه كثيراً من أخطاء بطليموس، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون. واطرد هذا الشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحمد النسوي يؤلف بالفارسية كتاباً في اللوغاريتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي. ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين، وفي مقدمتهم^(١) عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه - كما يقول ألدوميلي - الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيباً منظماً، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم، وبنى له مرصداً سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور، وعين له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم وألف فيه كتابه "التاريخ الجلالى" نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي. ومن أشهر الرياضيين بعده نصير^(٢) الدين الطوسي المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه، فأرسلوه إلى عاصمتهم "ألموت" وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبر على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات، حتى إذا استولى هولاءكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته، وكرمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم، وصحبه في هجومه على بغداد، وانتهاز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة، وكون منها مكتبة ضمت أكثر من أربعمائة ألف مجلد، كما يقول ابن شاعر في كتابه فوات الوفيات. وساعده هولاءكو في بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعين معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين، وظل نصير الدين قائماً على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣

(١) راجع في عمر الخيام وترجمته القفطي ص ٢٤٣ وآثار البلاد للفرزباني (طبعة وستنفلد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤

وألدوميلي ص ٢١٤، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر في نصير الدين الطوسي وترجمته فوات الوفيات لابن شاعر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٣٠٧/٢ وروضات

الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وبراون ص ٦١٥ وألدوميلي ص ٢٨٩، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية،

وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته.

وقد ألف زيجاً أو قل تقويماً أصح به تقويم الخيام، وألف كتباً كثيرة في التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعات. ومن أشهر تلاميذه قطب^(١) الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضياً فلكياً، ومن كتبه: "نهاية الإدراك في دراية الأفلاك". ومنهم نجم^(٢) الدين علي بن عمر الكاتب المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفاً في مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب في المنطق سماه "الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية" وهي مشروحة مراراً. وظل مرصد المراغة مجهزاً بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجري، وكانت العربية لا تزال في إيران اللغة الأولى للعلوم، وإن أخذت تزاحمها الفارسية حتى ظفرت بها في الحقب المتأخرة.

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية، وكانت البيمارستانات تعد مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به، ومن أهم الأطباء في القرن الرابع الهجري علي^(٣) بن العباس المجوسي صاحب الكنائس الملكي في الطب، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى، وكان يعاصره أبو^(٤) سهل المسيحي الذي ألف ما يشبه دائرة معارف طبية في مائة مقالة. ولزين^(٥) الدين الجرجاني الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها "ذخيرة خوارزم شاه" وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد. ويظل الاهتمام بالطب على توالي الحقب، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير، ويشتهر في هذا العلم موفق^(٦) بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري، كما يشتهر في الكيمياء الطغرائي الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود، وله كتب

(١) راجع في قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٣٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٩ وألدوميلي ص ٢٩٨.

(٢) انظره في فوات الوفيات ١٣٤/٢ وألدوميلي ص ٢٧١.

(٣) راجع ألدوميلي ص ٢٣٨ وما بعده حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها علي بن العباس وانظر القفطي ص ٢٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤.

(٤) انظر فيه القفطي ص ٤٠٨ وبروكلمان ٢٩٤/٤.

(٥) راجع فيه ألدوميلي ص ٣٢٠.

(٦) ألدوميلي ص ٢٣٩.

كثيرة في الكيمياء^(١)، منها الجوهر النضير في صناع الإكسير. وللقزويني^(٢) زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعي سماه "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات".

ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافي وجه العرب منذ الخوارزمي الرياضي محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان، ونشط فيه التأليف نشاطاً واسعاً واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجاً طريفاً في وصف البلدان أن يعنوا بالحديث عن عادات الشعوب، ويقصوا بعض ما سمعوه من الأعاجيب، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ما سمعه الجغرافي بأذنه ورآه تحت بصره، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات. ويلقانا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبودلف الخزرجي مسعر بن مهلهل شاعر الكدية الذي سنترجم له بين الشعراء الشعبيين، وعداده في شعراء أصفهان، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة، حققها المستشرق مينورسكي، وعني الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتي في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربي لإيران. وجاء بعده في القرن الخامس الهجرية رحالة إسماعيلي، هو ناصر خسرو، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى "سفرنامه" واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧-٤٤٤هـ) طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر، وهي تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربي. وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيط الهندي والهادي، ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرهما وشواطئهما في آسيا وإفريقيا وكل ما رآوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور. ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب "

(١) انظر في نشاط الطغرائي الكيميائي ألدوميلي ص ٢٣٩.

(٢) راجع في القزويني براون (ترجمة الدكتور الشواربي) ص ٦١٢ وألدوميلي ص ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من

مراجع وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٦٠.

عجائب^(١) الهند بره وبحره وجزره وشطآنه " لبزرك بن شهريار الناخذاه أي الربان. ويدل اسمه على أنه إيراني، وتدلل حكاياته على أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري، وهو يقص في كتابه قصصاً بديعاً ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندي والهادي ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء، وما شاهدون من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها، وهو كتاب جغرافي وأدبي وقصصي نفيس.

وربما كان القزويني زكريا بن محمد المذكور آنفاً أكبر جغرافي أنتجته الحقب التالية في العصر، واسم كتابه الجغرافي: " آثار البلاد وأخبار العباد " وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم في آسيا وإفريقيا وأوروبا وخاصة شعوب الهند والصين، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد في البلدان الإسلامية، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكي كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه في بعض جوانبه شبيهاً بكتب الأدب الخيالية المسلية.

ولعل في كل من سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل في إيران حتى القرن الثامن الهجري، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم في حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفاً دقيقاً، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب يفي بهذه الحاجة، على نحو ما يلقانا عنده في كتابه التعريفات الذي أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتباً لها على حروف المعجم ترتيباً دقيقاً.

(١) انظر في هذا الكتاب كراتشكوفسكي ١٤٣/١ وكتابنا " الرحلات " طبع دار المعارف ص ٣٣.

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث في اللغة نشاطاً واسعاً لهذا العصر، إذ كثر العلماء الإيرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم، واهتمامهم به قديم، ولذلك لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخليل بن أحمد، وهو أول معجم وضع في العربية، إنما تنشر - كما ذكر صاحب الفهرست - من خراسان. ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ وهو أيضاً نشر لأول مرة في إيران، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وفارس ابن دريد من البصرة لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل، وهناك وضع الجمهرة، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم - كترتيبها في معجم العين - على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أي من الحلق واللسان والفم والشففتين. وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذي نحن بصدد معجم تهذيب اللغة الذي وضعه أبو منصور محمد^(١) بن أحمد الأزهري الهروي المتوفى سنة ٣٧٠هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران.

ورتب الأزهري معجمه على ترتيب معجم العين أي حسب مخارج الحروف، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضعاً مدى الثقة والتهمة في أعمالهم. وكان يعاصر الأزهري عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذي نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واتبع فيه طريقة جديدة هي ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة، ووضع صاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم يبق منه إلا بعض

(١) انظر في الأزهري ابن خلكان (طبعة دار صادر بيروت) ٤/ ٣٣٤ ومعجم الأدباء ١٧/ ١٦٤ وشذرات الذهب ٣/ ٧٢

والسبكي في طبقاته ٣/ ٦٣.

أجزاء لا تزال مخطوطة. وخلفهما أبو الحسين أحمد^(١) بن فارس القزويني معلم العربية بهمدان المتوفى سنة ٣٩٥هـ وله معجمان: المجلد ومقاييس اللغة، أما المجلد فمعجم عام رتبه حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم، غير أنه قسم المواد في كل حرف إلى ثنائي ويشمل المضاعف والمطابق، ثم ثلاثي، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية، والتزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع ما يليه، ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجلد، عني فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلاً ترد إليه أو أصليين. وهو فيه أكثر منه في المجلد عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية، بينما هو في المجلد أكثر منه في المقاييس عناية بذكر الأعلام.

ولأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري^(٢) معاصره المتوفى سنة ٣٩٥هـ معجمه المشهور: تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح، وأصل موطن الجوهري فاراب شرقي خراسان، رحل في طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر، ورجع إلى خراسان فنزل في الدامغان ثم ألقى عصاه في نيسابور، وظل بها يدرس ويصنف إلى وفاته، ومعجمه مرتب على الحروف الجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذي اتبعه خاله الفارابي في معجمه ديوان الأدب، وأوتي المعجم من الشهرة والذيع ماجعل مؤلفات كثيرة تعني به عند العلماء في موطنه وفي غيره. ووضع محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن الهجري مختصراً له سماه "مختار الصحاح" ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها، وهو مطبوع في عصرنا مراراً وتكراراً. وللزحشري^(٣) محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨هـ معجم عام سماه "أساس

(١) انظر في أحمد بن فارس اليتيمة ٣/ ٤٠٠ ودمية القصر وابن خلكان ١/ ١١٨ ومعجم الأدباء ٤/ ٨٠ وإنباه الرواة ١/ ٩٢ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٤/ ٢١٢.

(٢) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١/ ١٩٤ ومعجم الأدباء ٦/ ١٥١ وشذرات الذهب ٣/ ١٤٢ واليتيمة للثعالبي ٤/ ٤٠٦ ودمية القصر للباخرزي وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٧.

(٣) انظر في الزحشري ابن خلكان ٥/ ١٦٨ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٣/ ٢٦٥ واللباب ٢/ ٥٠٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٢٦ وطبقات المفسرين للسيوطي ٤١ وشذرات الذهب ٤/ ١١٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٤ وأزهار الرياض ٣/ ٢٨٢ ونزهة الأبياء صلى الله عليه وآله وسلم ٣٩١ والجواهر الفضية

البلاغة" وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامهما، ويعني ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة. ونمضي إلى القرن الثامن فنلتقي بالفيروز بادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفي سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية.

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف. منها معجم أبي عبيد الهروي المتوفي سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهري، ولم يعن مثل أستاذه بمعجم عام إنما عنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما، ووضع الزوزني^(١) الحسين بن علي بن أحمد المتوفي سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه ترجمان القرآن. وجاء بعده الراغب^(٢) الأصبهاني الحسين بن محمد المتوفي سنة ٥٠٢ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم. ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث.

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة^(٣) الأصفهاني المتوفي سنة ٣٥٠ وكان يتهم بشعوبيته لافتخاره بنسبة إلى الفرس، ولأنه فيما يقال وضع كتاباً لعُضد الدولة البويهية في الموازنة بين العرب والفرس،

٢/ ١٦٠ وكتب التاريخ في سنة وفاته ويراون في تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ص ٤٥٨.

(١) راجع في الزوزني إنباء الرواة ١/ ٣٢٠ ويراون ص ٤٤٦ وبروكلمان ٥/ ٢٠٧.

(٢) انظر في الرغبة بغية الوعاة وطبقات المفسرين تنمة البيهقي ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٥/ ٢٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

(٣) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٣/ ٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية

وينفي عنه بروكلمان هذه التهمة، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم!. وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم "أحلم من الأحنف" وسماه الدرة الفاخرة، وصنع الصاحب المذكور أنفأ أمثال المتنبي، استخرج من شعره الأبيات التي تجري مجرى المثال.

وكان يعاصره أبو هلال^(١) العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ وقد وله بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب، وتعلم بها، واحترف التجارة، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبته على أحروف المعجم، ذكر فيه منها نحو ألفي مثل. وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربها ومواردها، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهاني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل. وجاء بعده الميداني^(٢) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال. حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية، وهو استقصاء لم يسبق إليه، مع شرحها شرحاً مستفيضاً. وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه أنفأ فألف معجمه "المستقصى في الأمثال"، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني. ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة والدقة. ويدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب المعرب لناصر^(٣) المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم. ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء.

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية، وأهم منه كتاب الصاحب في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور أنفأ باسم الصاحب بن عباد، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل

(١) انظر في أبي هلال معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨ - ٢٦٧ ومعجم البلدان في عسكر مكرم وإنباه الرواة للقفطي باب الكني وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١/ ١١٢.

(٢) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٥/ ٤٥ وإنباه ١/ ١٢١ وابن خلكان ١/ ١٤٨ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠.

(٣) انظر في المطرزي معجم الأدباء ١٩/ ٢١٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ١٩٠ وابن خلكان ٧/ ٣٦٩ وابن قطلوبغا ص ٧٩.

اللغة العربية وخصائصها. واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء، وتجرد لذلك أبو أحمد^(١) العسكري خال أبي هلال، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع.

ولم يقتصر نشاط اللغويين في إيران على كل ما قدمنا، فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدي لديوان المتنبي وشرح الزوزني المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مراراً ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية. واشتهر التبريزي أبوزكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشنفرى، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري.

ونessus اللغويون بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة، وألفوا في ذلك مصنفات مختلفة، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وكتاب نشر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآبي^(٢) من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة تاييه الكشكول والمخلاة، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر.

ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة، وكثير منهم لهم كتب نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع الهجري أبو علي الفارسي^(٣) المولود بالقرب من شيراز سنة

(١) انظر في أبي أحمد لعسكري ابن خلكان ٨٣/٢ ومعجم الأدباء ٢٣٣/٨ وإنباه الرواة ٣١٠/١ والمتنظم ١٩١/٧.

(٢) راجع في أبي الحسن الآبي دمية القصر ٤٦٧/١ وتتممة اليتيمة ١٠٠/١ ومعجم البلدان في آية من قرى أصبهان.

(٣) انظر في ترجمة أبي علي الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ٢٧٣/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٢٠٦/١ وتاريخ بغداد

٧/٢٧٥ ومعجم الأدباء ٢٣٢/٧ ولسان الميزان ١٩٥/٢ وشذرات الذهب ٨٨/٣ وابن خلكان ٨٠/٢ ونزهة الألباء

ص ٣١٥ وكتاب د. عبد الفتاح شلبي: أبو علي الفارسي.

٢٨٨ وكان رحلة في تدريسه، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مكرم بخوزستان وأيام في كرمان، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية، وهكذا. وبجانب ذلك له كتب مستقلة ^{عني} القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكملة وقد صنفها باسم عضد الدولة. هو أستاذ ابن جني، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية، حتى ليخيل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلها ابن جني في كتبه إنما استمدتها من إملاءات أبي علي الفارسي. وهو في آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يسبق إليها، نافذاً بذلك إلى المذهب^(١) البغدادي الجديد في النحو الذي كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستي الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة.

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذي مر بنا ذكره، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجي في المنطق، سماها مقدمة في النحو. ومن نحاة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسنفضل الحديث فيه بين البلاغيين، غير أننا نشير إلى أن له كتاباً في النحو سماه العوامل المائة، ^{عني} به الشراح طويلاً.

ويأتي بعده الزمخشري، وله كتب نحوية مختلفة، أشهرها المفصل، وقد جعله في أربعة أقسام: قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام، وقد ^{شرح} هذا الكتاب مراراً، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات. وهو في الكتاب بغدادي ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه، وينفرد بآراء

(١) راجع في ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها.

جديدة^(١). وتلك هي أصول المذهب البغدادي في النحو الذي استحدثه ابن كيسان والزجاجي وثبته بعدهما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جنى. ويؤلف المطرزي كتاباً في النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون. وإمام النحاة بعد ذلك في إيران الرضى^(٢) الإستراباذي نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالي سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه في إستراباذ من أعمال طبرستان، وقد عني بعملين لابن الحاجب المصري، هما الكافية في النحو والشفافية في الصرف، فشرحهما شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره، وفي ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية في إيران حتى أواخر القرن السابع الهجري وهو في شرحه للكتابين بغدادي المذهب، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصلاً القول في اختلاف النحاة، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة.

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران، وأول من نقف عندها فيها أبو أحمد العسكري الذي عرضنا له آنفاً، فقد ألف فيها كتاباً في صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من بحوثها في كتابه الصناعتين، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلاني في كتابه إعجاز^(٣) القرآن. وكتاب الصناعتين لأبي هلال مطبوع مراراً، وهو يريد بالصناعتين صناعتي الكتابة والشعر، وقد جعل الكتاب في عشرة^(٤) أبواب: باب لموضوع البلاغة وحدودها، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه، وباب ثالث لمعرفة صناعة الكلام، وباب رابع لحسن النظم، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب، وباب سادس للسرقات الشعرية، وباب سابع للتشبيه، وباب ثامن للسجع والازدواج، وباب تاسع

(١) انظر في ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣.

(٢) راجع في الرضا كتابتنا المذكور ص ٢٨١.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها و ص ٤١٣ وما بعدها.

(٤) راجع في تحليل هذا الكتاب: البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها.

لفنون البديع وهو أطول الأبواب، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافي ودقة الخروج من النسب إلى المديح.

وخلف أبا هلال القاضي عبد الجبار^(١) قاضي قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥ وقد عرض في موسوعته الكلامية "المغني في أبواب التوحيد والعدل" لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها، وأداه الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبي هاشم الجبائي في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته. ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة، فيقول - كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده - إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، فالكلمة في نفسها لا تعد فصيحة، بل لابد من ملاحظة أبعادها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير. وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وترسم من فروق في الكلام، أو بعبارة أدق يريد - كما أراد عبد القاهر - النظام النحوي للكلام. ويمنع عبد الجبار - كما منع عبد القاهر فيما بعد - أن يكون للفظ صفة أدبية في الكلام من حيث هي لفظة مفردة، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها. ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة، مع أنها يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء.

وهذه النظرية^(٢) الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجاني^(٣) المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا، فبسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعاني المعروف بين علوم البلاغة العربية، فالأصل

(١) انظر في عبد الجبار تاريخ بغداد ١١٣/١١ ولسان الميزان ٣/٣٨٦ والشذرات ٣/٢٠٢ ومرتآة الجنان ٣/٢٩ وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى ٦٦ وميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ والسبكي ٥/٩٧ وكتابتنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ١١٤.

(٢) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها.

(٣) انظر في عبد القاهر إنباه الرواة ٢/١٨٨ ودمية القطر ٢/١٧ والسبكي ٥/١٤٩ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ومرتآة الجنان ٣/١٠١ وفوات الوفيات ١/٦١٢.

من لدن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التي يصورها كتاب دلائل^(١) الإعجاز من لدن عبد القاهر. وكما وضع علم المعاني وضع علم البيان وضعاً نهائياً في كتابه^(٢) أسرار البلاغة، وضعه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية، مع روعة العرض وطرافته، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية، ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشف مباحثه في علمي المعاني والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات^(٣) بارعة، سواء في المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي يصورها أيضاً عبد القاهر. وعنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكله واللف والنشر والالتفاف وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظر والتقسيم والاستطراد والتجريد.

وتتحول البلاغة بعد الزمخشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة، وأهم ن دفعها نحو هذا الاتجاه عاجلاً الفخر^(٤) الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية، وطاف بكثير من البلدان الإيانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاة أجله وهو يمتاز في تأليفه الكثير بالقدرة على تشعيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها، يمدّه في ذلك عقل متفلسف، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة، وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام. ويهمنّا كتابه في البلاغة الذي سماه: "كتاب نهاية الإيجاز دراية الإعجاز" وهو يعلن في مقدمته^(٥) أنه سينظم ما كتبه عبد القاهر في مصنفية: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وينوه بصنيعه قائلاً: "ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابي التقطت منهما معاهد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعت الترتيب مع التهذيب، والتحرير في التقرير، وضبطت أوابد الإجماليات في كل باب التفسيرات اليقينية، وجمعت متفرقات

(١) انظر في عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠-١٨٩.

(٢) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩٠-٢١٨.

(٣) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص ٢١٩-٢٧٠.

(٤) انظر في الحر الرازي ابن خلكان ٤/٢٤٨ وطبقات السبكي (طبعة عيسى الحلي) ٨/٨١ وطبقات المفسرين ٣٩ والوفائي للصفدي ٤/٢٤٨ وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص ٢١٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٥/٢١.

(٥) راجع في تحليل الكتاب مواد كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٧٥.

الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل". وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل" وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد احالتها هيكلًا لا حياة فيه فقد ألفت فيها المسوم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة. ولم تنفعه إضافات الزمخشري فقد بث فيها نفس السموم. وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفي سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه "حدائق السحر في دقائق الشعر". ما ذكره فيه ن أو ان البديع، وأسعفه في هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر في كتابه من الأديين الفارسي والعربي. ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الجفاف الشديد.

ويخلفه السكاكي^(١) سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة ٥٥٥ وقد مضى يعبُّ في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها، وذاعت شهرته، فقصده الطلاب، وظل يعلم ويلقي محاضراته إلى أن توفي سنة ٦٢٧. ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه "المفتاح" وقد جعله في ثلاثة أقسام^(٢): قسم لعلم الصرف، وقسم ثان لعلم النحو، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان، وألحق بهما ذيلًا تناول فيه مبحثًا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثًا ثانيًا لألوان البديع اللفظية والمعنوية. وقدم لعلوم البلاغة بمبحث واسع في علم المنطق، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي، وبذلك تضمَّن المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي. وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتب فيه عن علوم البلاغة ملخصًا، إذا الكتاب أشبه بمتن في كل ما خاض فيه من مباحث، وهو متن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله. مع تفوقه عليه في الدقة وضبط

(١) انظر في السكاكي معجم الأدباء ٥٩/٢٠ والجواهر المضوية ٢/٢٢٥ والفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص ٣٠١

وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات الذهب ٥/١١٢٥.

(٢) انظر في تحليل المفتاح كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٨٧.

الأقسام، غير أنه يخلو خلواً تاماً من تحليلاً عبد القاهر الوزمخشري، ويصبح الكتاب متناً لعلوم البلاغة يَحْصِي قواعدها وقواعدها، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس، إذ وُضعت تلك القواعد والقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف، وهي قوالب يداخلها غير قليل من اللتواء بسبب كثرة التقسيمات، مما جعل الكتاب أو قل المتن في حاجة إلى الشرح والتوضيح، وتوالت الشروح، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم، وشرحه كثيرون من مواطنيه، من أشهرهم سعد^(١) الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرقي إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقن، وبها توفي سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو. وممن شرح "المفتاح" السيد الشريف^(٢) الجرجاني المتوفي سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذي مر بنا ذكره، وله أيضاً تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث. وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز فتصدى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني يعمل حاشية عليه. ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التي يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشي عليه.

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغة في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر، وأول ما يلقانا منها رسالة صاحب بن عباد في الكشف عن مساوي المتنبي، وهو فيها ساخط عليه سخطاً شديداً، وقد يُردّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أبى أن يمدحه، وأهم مساوي المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة في الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافي الصعبة. ويلقانا في خراسان

(١) راجع في ترجمة السعد التفتازاني روضات الجنات ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكاني ٣/ ٣٠٣ والفوائد البهية ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٣/ ٢٣، ٨٧.

(٢) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السير لخواندمير ٣/ ٨٧ والبدر الطالع ١/ ٤٨٨ وبغية الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية

لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦-٣٨٧هـ). رواية للمتنبّي يسمى المتيم^(١) وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار المتنبّي عن فضل المتنبّي وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبّي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثرها من التخاصم والجدل في شعره، فألف علي^(٢) بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبّي وخصومه، وكان من قضاة الدولة البويهية في إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبّي على موازين القضاء العادل، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أن ينبغي أن لا يُحكّم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جود فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين في معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعراً ممتازاً من السابقين لم يخل شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض في بيان الحسن والقبح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام. ويلم بطائفة من أبيات المتنبّي التي أخذت عليه لبعده في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبّي قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تلخيصه ومعانيه الدقيقة، ويتحدث عن سرقاته حديثاً مستفيضاً مبيناً أن السرقات شركة بين الشعراء جميعاً. ولعلي بن عبد العزيز في ثانيا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة في الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر الشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات^(٣) ويأتي بعده الثعالبي^(٤) المتوفى سنة ٤٢٩ ويعتقد ف يكتابه اليتيمة فصلاً طويلاً عن المتنبّي فيما له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استهله بقوله عنه: "نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر" وبدأ ينبذ عن ابتداء أمر المتنبّي، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه التي استظهرها عليه الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبي إسحق

(١) انظر في المتيم اليتيمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدباء ٢٤٤/٤ وفورات الوفيات ١٣٣/١.

(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٣) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٤) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ١٧٨/٣ وعبر الذهبي ١٧٢/٣ وشذرات الذهب ٢٤٦/٣ ونزهة الألباء

ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومرآة الجنان ٥٣/٣ ومعاهد التنصيص ٢٦٦/٣.

الصباي وأبي العباس الضَّبِّي والخَوَارزمي، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج البيغاء والمهلبلي الوزير والصاحب بن عباد والسَّري الرفاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلامي وأبا القاسم الزعفراني، ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل في بيان مساوئ شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته آفة الذكر، ثم يفيض في بيان محاسن شعره، مشيداً بنسبته بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصدوق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني. وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم^(١) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتاباً نُشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين، ورماء في هذه المقدمة بخبث الاعتقاد وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوَّسه وأضله. ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه، وأن له الناد البدع، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويص. ثم أخذ يناقش ابن جني في كثير من تفسير شعره مرتباً الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي:

أَحِبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وذكر أن ابن جني زعم أنه ناقض بذلك أبا الشيص في قوله:

أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةٌ حُبًّا لَذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللَّوْمَ

(١) انظره في خزانة الأدب ١/ ٣٨٢.

ويعلق على ذلك بقوله: معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشيص، وإنما يريد المتنبي: إني أحب حبيبي واللّوام ينهون عنه فكيف نأترف، وأبو الشيص يريد بقوله: أحب اللوم لا لنهي عن هوائك بل لتكرّر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام. ومضى الأصفهاني على هذا النحو يرد على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب. وعنى بالرد على تفسيرات ابن جني إيرانيّ ثان هو أبو علي بن فُورَجَة^(١) البروجرديّ المتوفى سنة ٤٧٣ وقد كتب في ذلك كتابين: كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه كتاب التجني على ابن جني، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية، وعماده الرد على ابن جني، وفيه أيضاً ردود على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في سواطته وأبي علي الخاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوئ المتنبي، وهو يغلظ - كما لاحظ الدكتور غياض - في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنياً! وفيه يقول: "ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوي العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم". ويبد من ملاحظات ابن فُورَجَة في الكتاب وسوّقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطلع على كثير وسوّقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطلع على كثير من خصائصه، من ذلك ملاحظته على البيت:

وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظم

فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم، وهو ضرب من الالتفات، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير المخاطب. ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة، ويعقب على ذلك ابن فُورَجَة بقوله: "وقد استقرت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به، فإذا

(١) انظر في ابن فُورَجَة تنمة اليتيمة ١٢٣/١ ومعجم الأدباء ١٨٨/١٨ وفوات الوفيات ٢٤٧/٢ وإنباه الرواة ١/١/٣٣٤

أورد ضميراً في ذمّ رده إلى الكلام الأول تفادياً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخيراً (أي أنه يرد الضمير إلى الغيبة). ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أما صاحب كما قدمنا فإنه ينصّ على بعض سيئاته، فيقول في قصيدته "مِلَّت القطر أعطشها ربوعاً" هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا يُنتفع به ولا بتفسيره. وحرى بنا أن نذكر تنمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح علي بن أحمد الواحدي الذي مرّ ذكره^(١) لديوان المتنبي، وقد ألّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه، وهو ما لم يتح لديوان آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة، بحيث أصبح الديوان معدّاً لكي يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلا شيوخه حسين. وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة، وخاصة في الأبيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح، فإن الواحدي يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبي جيد.

(١) راجع في الواحدي دمية القصر ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢/ ٢٢٣ والسبكي ٥/ ٢٤٠ وشذرات الذهب

٣/ ٣٣٠ وابن خلكان ٣/ ٣٠٣.

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم، واتضحت فيه اتجاهات ثلاثة: اتجاه التفسير بالرأي، واتجاه شيعي، واتجاه صوفي، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة^(١). ويقف الفخر الرازي المار ذكره آنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن "مفاتيح الغيب" آراء المعتزلة بطريقة فلسفية، إذ ك ان عقله متفلسفاً إلى أبعد حد، وهي فلسفة تظهر في تفسيره بصور كثيرة، حين يخوض في المباحث العقلية، وحين نرى المألة عنده تتشعب شعباً كثيرة. وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة، تتفرع منها فروع، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية. وكان أشعري العقيدة، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره، وتعقب المعتزلة كما قلنا معلماً عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعري المسني. ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازي تفسير البيضاوي^(٢) عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره، كما يعتمد على الرازي وغيره من المفسرين، وهو لا ينحى في تفسيره باللائمة - كما يصنع الزمخشري - على أهل السنة، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسفي^(٣) المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سمي تفسيره "مدارك التنزيل وحقائق التأويل".

(١) انظر تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

(٢) راجع في البيضاوي السبكي ١٥٧/٨ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومرآة الجنان ٢٢٠/٤.

(٣) انظر في النسفي الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ واللكنوي ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية.

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في بيات الشيعة المختلفة بإيران، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفي سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السلمي رأس الإمامية بخراسان، ومن أشهر تفاسيرهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفي سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق. وملتقى بتفسير الطبري^(١) أبي علي الفضل بن الحسن المتوفي بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان، وقد سمي تفسيره مجمع البيان. وهو في ثلاثين مجلداً.

أما الاتجاه الصوفي فمن التفاسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمي المتوفي سنة ٤١٢ وسماه "حقائق التفسير" وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلج فيه بعض متفلسفة الصوفية، وتغلب عليه روح الوعظ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق، تفسير ينحوف فيه نحو الوعظ والتصوف، لا يزال مخطوطاً.

ومن التفاسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفي سنة ٣٧٣ وسماه "بحر العلوم" وتفسير الثعلبي^(٢) النيسابوري المتوفي سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدي المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفاسير: البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب "أسباب النزول" واختصر الفراء البغوي الحسين بن مسعود المتوفي سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسَمَّى مختصره "معالم

(١) انظر في الطبرسي روضات الجنات ص ٥١٢ ومقدمة تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع.

(٢) راجع في الثعلبي معجم الأدباء ٣٦/٥ وطبقات المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١٠٠/١ وابن خلكان ٧٩/١ وإنباه

١١٩/١ وروضات الجنات ٦٨ والسبكي ٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٨٣/٤.

التنزيل". ولنظام^(١) الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي ويهتم فيه بذكر القراءات.

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر، ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبي داود السجستاني، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صنع إيرانيين. ومضى هذا النشاط يؤتي ثماراً جديدة في القرون التالية. وأول من نلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد^(٢) بن أحمد بن حبان البستي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه "الجرح والتعديل" في نقد حملة الحديث وروائيه، وكان يملئ مصنفاته في الحديث وتقرأ عليه أو تؤخذ عنه. وكان يعاصره ابن القطان^(٣) الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين. وخلفهما ابن منده^(٤) الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلاً في طلب الحديث وله مسند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة. وكان يعاصره أبو سليمان حمد^(٥) بن محمد الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد لحديث كتباً منها إصلاح غلط المحدثين، وله شرح على صحيح البخاري، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي: الصحيح والحسن والضعيف. وعاصره الحاكم

(١) انظره في روضات الجنات ص ٢٢٥.

(٢) انظر في ابن حبان الأنساب ٨١ والوافي بالوفيات ٣١٧/٢ وتذكرة الحفاظ ١٢٥/٣ والسبكي ١٣١/٣ وميزان الاعتدال ٥٠٧/٣ وشذرات الذهب ١٦/٣ ولسان الميزان ١١٢/٥.

(٣) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ١٤٣/٣ وميزان الاعتدال ٢/١ ولسان الميزان لابن حجر ٦/١ وشذرات الذهب ٥١/٣.

(٤) راجع في ابن منده أخبار أصبهاني لأبي نعم ٣٠٦/٢ وتذكرة الحفاظ ٣٣٨/٣ ولسان الميزان ٧٠/٥.

(٥) وابن خلكان انظر في الخطابي السبكي ٢٨٢/٣ وإنباه الرواة ١٢٥/١ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٨ وابن خلكان ٢/٢١٤ وتذكرة الحفاظ وبيمة الدهر ٤/٣٣٤.

النيسابوري^(١) المعروف باسم ابن البيع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علماً مستقلاً، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه، وله كتاب المستدرک على الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم، جمع فيه كثيراً من الأحاديث التي لم يُدخلها في صحيحيهما مستدلاً ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطهما، والكتاب مطبوع في حيدر آباد، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي. وكان يعاصره ابن فورک^(٢) محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غزنه المتوفى بها سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفي، منها بيان مشكل الحديث، ورد على المحدة والمعتلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع رداً على المشبهة والمجسمة. ومن كبار المحدثين التالين أبو إسحق الإسفرايني المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة "حلية الأولياء" والبيهقي^(٣) أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور، وبها كان يملأ كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير، وكتاب معرفة الآثار. وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهاراً عظيماً، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي^(٤) المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعي وتفسير القرآن الكريم، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيحي البخاري ومسلم إلى حسنة، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه. وجاء بعده في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي فرتبه ترتيباً جديداً وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح،

(١) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ ب والسبكي ٤/١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٢٧ وطبقات الفراء ٢/١٨٤

ولسان الميزان ٥/٢٣٢ والمنتظم ٧/٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥/٤٧٣ واللباب ٢/٩٥ وابن خلكان ٤/٢٨٠.

(٢) انظر في ابن فورک السبكي ٤/١٢٧ والوفي ٢/٣٤٤ وابن خلكان ٤/٢٧٢ والشذرات ٣/١٨١ والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٠.

(٣) راجع في البيهقي تذكرة الحفاظ ٣/٣٠٩ واللباب ١/١٦٥ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/٧٥ والسبكي ٤/٨.

(٤) انظر في البغوي السبكي ٧/٧٥ وابن خلكان ٢/١٣٦ وتهذيب ابن عساكر ٤/٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤/١٢٥٧ وشذرات الذهب ٤/٤٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٣.

وألف بجانب المشكاة كتاباً في رجالها سماه أسماء المشكاة، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠. وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران في القرون التالية.

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث، بل ربما كان أوسع وأعظم، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل، ولم يكن المذهب الحنبلي شائعاً في إيران ولا في أي إقليم من أقاليمها، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هرة وهمذان^(١) من مثل أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري صاحب كتاب ذم (علم) الكلام، وكان محدثاً يتظاهر بالتجسيم والتشبيه، وينال من الأشاعرة^(٢) وربما كان المذهب المالكي أقل إتباعاً حتى ليرى أن أحمد بن فارس اللغوي الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعيّاً كان ينزل الري، فصار مالكيّاً، كما يقول ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء، فسئل في ذلك، فقال: دخلت الحمية لهذه البلدة، يقصد مدينة الري، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة، وكان مذهب داود الظهري أكثر إتباعاً في إيران أثناء القرن الرابع، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين. مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة.

وكان لمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرقي إيران وما وراء النهر، ويقال إن الفقيه أبا بكر^(٣) القفال المعروف بالشاشي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع، ويذكر المقدسي أنه كان غالباً أيضاً في كرمان^(٤)، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعيّاً أشعريّاً عدواً للحشاشين الإسماعيلية، فأسس، كما مر بنا، مدارس في جميع المدن الإيرانية

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ١٧٩، ٣٩٥، ٤٣٩، ٤٨١.

(٢) السبكي ٤/ ٢٧٢.

(٣) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٣/ ٤٦ وعبر الذهبي ٢/ ٣٣٨ والوافي ٤/ ١١٢ وشذرات الذهب

٢٠٧/ ٣ والسبكي ٣/ ٢٠٠.

(٤) المقدسي ص ٤٦٨.

الكبيرة سنة ٤٥٧، ورصد لها مبالغ طائلة، لإحقاق مكتبات بها ولمساكن الأساتذة ورواتبهم، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره، وظل ذلك من بعده. فكان طبيعياً أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهاراً عظيماً وأن يتألق في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون، يعدون في الذروة من الإمامة والقدرة على الفتيا، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع، لتطوروا بالفقه الشافعي تطوراً عظيماً. ومن أهم من نلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامية بغداد كما مر في قسم العراق، وكان يقابه في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني^(١) عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨. وقلنا في غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعمائة تلميذ، ورزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يعهد من غيره، وله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور، وظل فيها ثلاثين سنة يلقي محاضراته، وسلم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل؛ والبرهان في أصول الفقه. ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهراسي^(٢) علي بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته. وكان يعاصره أبو المحاسن الروياني^(٣) عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيداً على أيدي الباطنية الملاحدة، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي ٢١٥/٤ والمنتظم ٧/٩ واللباب ٢/٢٣٢ والأنساب ٤٣٥ ب وشذرات الذهب ٣/٣٤٩ وابن خلكان ١/٢٩.

(٢) راجع في الجويني الأنساب الورقة ١٤٤ والمنتظم ١٨/٩ وابن خلكان ٣/١٦٧ والسبكي ٥/١٦٥ والعقد الثمين ٥٠٧/٥ وشذرات الذهب ٣/٣٥٨.

(٣) مرت مصادر ترجمته بين المفسرين في العراق.

(٤) انظر في الروياني كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمنتظم ٩/١٦٠ وابن خلكان ٣/١٩٨ والسبكي ٧/١٩٣ والنجوم الزاهرة ١٩٧/٥.

البحر في الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافي، وصنف في الأصول والخلاف. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس فخر الدين الرازي محمد بن عمر الطبرستاني الأصل الرازي المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له في البلاغة، وله كتب كثيرة في علم الكلام وفي الحكمة وفي الطب، يقول ابن خلكان: "انتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين، وله في الفقه وأصوله كتب مختلفة، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربي والفارسي، ونزل بأخرة من عمره في هراة. وبها توفي، وله مواعظ طريفة. وكان قريباً من عصره الرافعي^(١) المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأصول، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكي - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين، وهو قزويني، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه، وله الشرح الصغير والمحزر وشرح مسند الشافعي والشرح الكبير المسمى بالعزیز في شرح كتاب الوجيز للغزالي، واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي وحواشيه التي ألقت بعده في مصر وغير مصر.

وكان مركز المذهب الحنفي مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوي والجواهر المضية لابن أبي الوفاء وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا، ومن مشاهيرهم في القرن الرابع أبو بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي الذي سبق ذكره في قسم العراق ومثله مر هناك أبو زيد الدبوسي البخاري المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية، وله تقويم الأدلة في أصول الفقه. ومنهم البزدوي^(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم السمرقندي المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط في الفقه وكتبه مختلفة في علم الأصول والتفسير. ومنهم السرخسي^(٣) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماماً علامة متكلماً

(١) انظر في الرافعي تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٦٤ وشذرات الذهب ٥/ ١٠٨ وفوات الوفيات ٢/ ٧ والسبكي ٨/ ٢٨١ ومرآة الجنان ٤/ ٥٦.

(٢) انظر البزدوي في الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص ١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلوبغا ص ٤١ والأنساب ٧٨.

(٣) راجع في السرخسي الجواهر المضية والفوائد البهية ص ١٥٨ وابن قطلوبغا رقم ١٥٧.

مناظراً أصولياً مجتهداً وله كتاب المبسوط في أحد عشر مجلداً، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي، ومنهم برهان^(١) الدين أبو الحسن الفرغاني المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداي شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي، وعليه حواشٍ عدة. ومنهم العميدي^(٢) السمرقندي أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماماً في فن الخلاف، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدي الفقهاء، ومن مصنفاته الإرشاد، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن. ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذي يتداوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كنز الدقائق، وله طبقات كثيرة في الهند ومصر، وعني به كثيرون فشرحوه، ويكثر الشراح للكتب في القرون التالية. ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافاً ولهم مشاركة في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزمخشري وناصر المطرزي ونصير الدين الطوسي.

وكان للشيعة بإيران فقهاءؤهم، ونذكر للزيدية منهم الإمام الهاروني^(٣) أحمد بن الحسين البطحاني المتوفى سنة ٤١١ وكان إماماً للزيدية بجيلان وبلاد الديلم. وقد أخذ المذهب الزيدي في التضاؤل أمام المذهب الإمامي الاثنى عشري حتى انحسر عن إيران، وتبعه المذهب الإسماعيلي، وخاصة بعض القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهائياً، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون- في عهد الدولة الفاطمية- موطنهم في إيران وينزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن ينسبوا إلى موطنهم الجديد، على نحو ما صنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى حوالي سنة ٤٧٠. أما المذهب الإمامي فهو الذي كتب له أن يذيع ويتنشر في إيران، حتى إذا كانت الدولة الصفوية

(١) انظر في الفرغاني الفوائد البهية ص ٤١ والجواهر المضية ١/ ٣٨٣ وابن قطلوبغا ص ٤٢ وبروكلمان ٦/ ٣٠٩.

(٢) راجع ترجمة العميدي في الفوائد البهية والجواهر المضية ٢/ ١٢٨ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٤/ ٢٥٧ والوافي ١/ ٢٨٠ والشذرات ٥/ ٦٤.

(٣) انظره في بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣/ ٣٣٣.

جعلته المذهب الرسمي للدولة، ومن فقهاء المبكرين الذين عملوا على تأسيسه في إيران أبو جعفر القمي المتوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازي المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافي أهمية كبيرة، ويعد- كما مر بنا في قسم العراق- رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده. وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر: عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالري سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مر بنا رئيس الشيعة في مدينة قم مركز المذهب الإمامي، وبابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته، وفي ذلك دليل يضم إلى ما قدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية. ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالي واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق.

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الري المار ذكره في المباحث البلاغية، وله كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه. ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشري ومر بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه أي الذكر الحكيم توجيهاً اعتزالياً، أساسه تأويل كل الآيات التي قد يفيد ظاهرها تشبيهاً، وكذلك توجيه الأخرى التي قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد. وقد عني الشيعة دائماً بالاعتزال وعدوه مؤيداً لهم في دعواتهم الشيعية، ولعل ذلك ما ساعد على بقاءه بعد القرن الخامس الهجري، ولكن على كل حال ضعف شأنه. ومنذ أحمد بن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة، حتى ليصمونهم بالإلحاد أحياناً. ولا نصل إلى أوائل القرن الرابع الهجري

حتى يفصل - كما مر بنا في العصر العباسي الثاني - أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة، وكان قد تتلمذ لهم، ويكون لنفسه مذهباً جديداً يسمى المذهب الأشعري، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة، وكان المعتزلة يقدمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوي. وبذلك أصبحت كل مسألة تقرر فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن والسنة، ونضرب لذلك مثلاً تنزيه الله عن التشبيه الذي كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به، كما أخذ يقول أهل السنة في أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة، واستدل على ذلك بأدلة سمعية في كتابه الإبانة وبأدلة عقلية في كتابه اللمع. وكان المعتزلة يحتكمون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة. وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله، فقال إن هذه الأفعال لله صنعاً وللإنسان كسباً وإرادة، فالإنسان يريد ما الله يخلقها. وقال، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمول والمعتصم والواثق، إن الألفاظ المنزلة بالوحي دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلقة محدثة، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها.

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعري لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية، وكان المذهب الشافعي - كما مر بنا - منتشراً في شرقي إيران، وكان أصحابه جميعاً أشاعرة، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقرينه المذهب الشافعي كراسي في جميع المدارس التي أنشأها - كما مر بنا - في إيران والعراق، فازدهر المذهب ازدهاراً عظيماً، وانتصر فعلاً على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعاً، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء، وكان أعلم أهل زمانه بعلمي الكلام والفقه الشافعي وبنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها خلقاً وللناس كسباً يقول: إن نفي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما ياباه العقل

والحسن، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفي القدرة ألا... فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحسن من نفسه الاقتدار يحسن من نفسه أيضاً عدم الاستقلال بالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجوده إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغني على الإطلاق، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجهه، والبارئ تعالى هو الغني المطلق الذي لا حاجة له^(١). وخلف الجويني تلميذه الغزالي، فقداد هذا المذهب إلى النصر الحاسم، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر.

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على مذهب الأشعري مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعلم من أعلامهم، وهو مذهب الماتريدي^(٢) محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التي توجبه هي العقل، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هي الشرع الذي يحتم علينا الإيمان بالله، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة، ولن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه. ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية، وقال الأشعري إنها زائدة على الذات قائمة بها، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلي. وبينما كان المذهب

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني (طبعة مصطفى البابي الحلبي وتحقيق الكيلاني) ٩٨/١.

(٢) انظر في ترجمة الماتريدي الأنساب للسمعاني ٤٩٨ والفوائد البيهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ١٣٠/٢ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي ١٥/٢ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد الذي يصور مذهبه الكلامي، وهو كتاب نفيس.

الأشعري يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدي يسود في بخاري وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفي في الفقه. وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعري، ومعروف أنهم كانوا يغلون في التشبيه. وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعري، الأشعري تعلقو حتى في بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك. وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر، حتى في نيسابور فسها وحتى منذ عهد نظام الملك. وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندري حسن لسلطانه طغرل بك السلجوقي أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخطابة، ونشبت بذلك فتنة^(١) في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة، ولم يلبث الوزير أن قتل وخلفه نظام الملك فازدهرت المذهب الأشعري منذ هذا الحين كما ذكرنا.

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازي للآيات والأحاديث التي قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية، دون إثباتها، ومعروف أن الأشعري كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) إن ذلك يفهم ولكن بلا كيف، حتى لا يأخذ بكفرة التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق، بينما توسط الأشعرية، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة، فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له. وأيضاً توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان. وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة والحنابلة والأشاعرة، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية، وكاد يختفي في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال، وألفت في ذلك كله كتب كثيرة، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك، وتارة تحكي جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستاني المؤلف في القرن

(١) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٣٨٩ وترجمات عبد الكريم القشيري والجوبتي وأبي سهل بن الموفق.

السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين^(١) الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وغيرهما، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه.

(١) انظر في عضد الدين السبكي ٤٦/١٠ والدرر لابن حجر ٤٢٩/٢ والبدر الطالع ٣٢٦/١ والشذرات ١٧٤/٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٨/١٠ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربي، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول، وهناك المؤرخون للمدن، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة. ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن أكبر مؤرخي الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخاً إيرانياً هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وأول من يلقانا في هذا العصر من هؤلاء المرخين المطهر^(١) بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانياً كما يشهد اسمه، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بستان شرق إيران، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان. وبه كثير من الأخبار التاريخية، وكان يعاصره مؤرخ إيراني هو حمزة الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠ ومر بنا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية، وله تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، وقد طبعت منه ونشرت بعض أقسام. وبلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه "تجارب الأمم" وقد ترجمنا له في القسم الثاني الخاص بالعراق.

وكان في عصره المرعشي المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوي كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم، عني فيه بسير ملوك الفرس، ومضى فيه حتى عصره ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتباً "الآثار الباقية من القرون الخالية" للبيروني كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عشره لأعيادها وكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية، وكان حرّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب في أحكامه، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية. وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة في القدم لما يشوبها من أساطير. ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها

(١) انظره في بروكلمان ٦٢/٣.

وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها. وكان يعاصره العُتبي^(١) محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمد الغزنوي وقد فصل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكِين وحروبهما، وخاصة حروب محمود في الهند، وسماه اليميني نسبة إلى لقبه: يمين الدولة الذي منحه له الخليفة تكريماً، وألفه في لغة مسجوعة منمقة، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم "الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي". وعُني محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين، غير أن الكتاب فقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثاً إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي. وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتاباً في تاريخ الدولة السلجوقية، وعليه اعتمد العماد^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلجوقية الذي سماه "نُصْرَةُ الْفُطْرَةِ وَعَصْرَةُ الْقُطْرَةِ". ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلطاطين كتاب ابن عَرَبْشَاه^(٣) المتوفى سنة ٨٥٤: "عجائب المقدور في نوائب تيمور" وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مراراً بمصر وفي أوروبا، وحقاً ابن عربشاه ولد في دمشق، غير أنه رحل عنها إلى بالد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التكتستان، وتلقى العلم على الشيوخ هناك، فمر به بإيران، وتولى ديوان الإنشاء هناك، وكانت تصدر عنه الرسائل بالعربية والفراسية والتركية.

وللمؤرخين في إيران كتب كثيرة خُصُّوا بها البلدان عراضين علماءها عرضاً واسعاً، فهي من جهة تاريخ علمي لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمي لعمالئها الناهيين، ومن

(١) انظر مصادر ترجمة العتبي في الفصل الأخير من هذا القسم.

(٢) راجع في العماد معجم الأدباء ١٨/ ١١ والشذرات ٤/ ٣٣٢ وابن خلكان ٥/ ١٤٧ وذيل الروضتين لأبي شامة ص ٢٧ والوافي ١/ ١٣٣ والسبكي ٦/ ١٧٨.

(٣) انظر في ابن عربشاه الضوء اللامع ٢/ ١٢٦ والشذرات ٧/ ٢٨٠ والبدر الطالع ١/ ١٠٩.

السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسي الثاني ابن منده محمد^(١) بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١، فله تاريخ أصبهان، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول والإمارات كتب تاريخ بخاري حتى سنة ٣٣١ لأبي بكر محمد بن جعفر الترشيحي المتوفى سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر الساماني، واختصره بعد محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤ وأكملته مؤلف مجهول إلى عهد المغول، ونشره شيفر في باريس، وجاء بعد الترشيحي الحاكم النيابوري الذي مر بنا ذكره بين الحداثين، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ علماء نيسابور، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد. ويؤلف الحسن^(٢) بن محمد القمي المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم: مدينة الشيعة، باسم الصاحب بن عباد، وهو مطبوع في طهران. ويؤلف أبو نعيم^(٣) المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ أصبهان ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه. ومن كتب القرن الخامس تاريخ الري لأبي سعد الآبي صاحب نثر الدرر الذي عرضنا له في غير هذا الموضع. ونلتقي في القرن السادس بتاريخ مرو للسمعاني^(٤) المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسبا وأب^(٥) يورد الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥.

وعُنت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم، ومنها العامة، ومنها الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين، ونذكر في مقدمة تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن^(٦) السلمي النيسابوري المذكور بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن الصوفي الذي يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار. وأوسع منه

(١) ابن خلكان ٢٨٩/٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ والشذرات ٢٣٤/٢.

(٢) انظر في القمي بروكلمان (الترجمة العربية) ٢٩/٣.

(٣) انظر في أبي نعيم السبكي ١٨/٤ وتذكرة الحفاظ ٢٧٥/٣ وشذرات الذهب ٢٤٥/٣ والمنتظم ١٠٠/٨ وميزان الاعتدال ١١١/١ وطبقات القراء ٧١/١ وابن خلكان ٩١/١ والعبر ١٧٠/٣.

(٤) راجع في السمعي المنتظم ١٠/١٠/٢٢٤ وابن خلكان ٢٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٠٥/٤ ومرآة الجنان ٣٧١/٤ والسبكي ١٨٠/٧ وتذكرة الحفاظ للهيبي ١٣١٦/٤.

(٥) انظر في السلمي السبكي ١٤٣/٤ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٢ واللباب ٥٥٤/١ والمنتظم ٦/٨ وتذكرة الحفاظ وشذرات الذهب ١٩٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣.

في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم صاحب تاريخ أصبهان الذي ذكرناه آنفاً، وترجماته أوسع وأخصب. ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي^(١) المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمى تنمة صوان الحكمة، ونشر في مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني.

وأهم كتب التراجم التي عنت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً، ترجم فيه أبو الفرج للنابهن من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام، ولم يترجم لأنبه الشعراء فحسب، بل ترجم أيضاً لأنبه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري. وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية، ولذلك سماه الأغاني، ويتلو الأغنية دائماً برقيمها الموسيقى قائلاً مثلاً إنها من الثقيل الأولى ونحو ذلك، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها، ويترجم إما للشاعر وإما للمغني أو المغنية ترجمة مفصلة، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة، وقد تزيد كثيراً، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف، يعرف كيف يروى وكيف يقص وكيف يسوق الأخبار سوقاً مشوقاً، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء، ويخيل إليك أحياناً أنك تراهم في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويضطربون، رؤية مجسمة، تجعل الماضي أمامك حاضراً بحذافيره.

ويعنى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها اليتيمة أو "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من

(١) راجع في البيهقي معجم الأدباء ٢١٩/١٣.

(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ٣٩٨/١١ وتاريخ أصبهان لأبي نعيم ١١/٢ والمنتظم ٤٠/٧ ومعجم الأدباء ٩٤/١٣

وإنباء الرواة ٢٥١/٢ وابن خلكان ٣٠٧/٣ وعبر الذهبي ٣٠٥/٢ وميزان الاعتدال ١٢٣/٣ ولسان الميزان ٢٢١/٤

ومرآة الجنان ٣٥٩/٢ والشذرات ١٩/٣ والنجوم الزاهرة ١٥/٤ وروضات الجنات ٤٨٧.

الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفاضل ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر، فبعض الشعراء النابيين المقيمين ببخاري وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور. وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لب اللب، وحبّة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص، مع كلام في الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات، غير أنه ^{عني} بأشعار الشعراء، والاختيار منها، ولم ^{يعن}، مثل أبي الفرج في كتابه الأغاني، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشفى غلة. وأتبع الثعالبي اليتيمة بذيّل لها سماه "تتمة اليتيمة" وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التي ذكرها في اليتيمة، وبينما تقع اليتيمة في أربع مجلدات كبار تقع التتمة في جزئين، وهي مطبوعة في طهران. والتتمة واليتيمة تؤرخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين في طبرستان والغزنويين في غزنة. ويليهما كتاب "دمية القصر وعصرة أهل العصر" للباخرزي على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه، ويجري على نفس نظام اليتيمة، فيؤرخ لشعراء العالم العربي، و^{يعني} خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما ^{عني} الثعالبي. وقد سار على غراره في العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم، وكأن الثعالبي هو المسئول عن هذا الاتجاه في الترجمة للشعراء، إذ عم وشاع لا في إيران وحدها بل في أقطار العالم العربي جميعها. ويأتي بعد الباخرزي في الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهاني الذي سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة، وتراجمه أوسع، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة، وخص إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس..

ولعل أهم كتاب في التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد الذي ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع في مجلد ضخّم بالزنكوغراف، وهو ليس في

الأنساب بمعنى نسب الشخص في آبائه، بل هو أعم من ذلك، إذ يعني بالأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم. ويعرف أولاً بما ينسب إليه الشخص، وإذا كان بلدة ذكر مكانها، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة، وقد يشترك في النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص، فيتحدث عن كل منهم، أو قل يترجم لكل منهم ذاكراً مولده ووفاته. واختصر الكتاب عز الدين بن الأثير في مصنفه اللباب في مختصر الأنساب، وإلى الكتابين نرجع في كثير من التراجم، كما هو واضح في الهوامش.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رفعة إيران الفسيحة، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق. وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان، وكان السامانيون في خراسان، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية: بغداد، وتليها إمارة الزياريين في البعد. وهياً ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملوا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية. وكان السامانيون أسبق إلى ذلك، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طعممة له ولبنيه، فاستقلوا بها مبكرين، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي. وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري، واتخذوا الفارسية لساناً لهم، يعبرون بها عن مشاعرهم، وغير قليل منهم يلفه ضباب الأساطير، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البلعمي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن. وخلفه الدقيقي الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية،

واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامة في تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها ألف بيت، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها، فأكملها من بعده الفردوسي في عهد محمود الغزنوي.

ولم يهتم البويهيون أي اهتمام بهذا الاتجاه القومي في إحياء الآداب الفارسية، فقد آثروا الانضواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة، وكثير منهم أتقنوا العربية، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم، مما جعل الثعالبي يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية في إيران. وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتابتهما في العربية. ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدما له مدائحهما بالفارسية، وهما منصور بن علي الرازي الملقب بالمنطقي ومحمد بن علي السرخسي الملقب بالكسروي، غير أن ذلك يعد شذوذاً في بيئة البويهيين، فقد كانت بيئة عربية خالصة، وكان مثل هذين الشاعرين يعدان طارئین عليها. وبالعكس عُنيت الدولة الغزنوية، وخاصة في عهد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية. وفي عهد محمود أنجز الفردوسي نظم الشاهنامة في نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسي^(١)، وكان الفرخى والعنصري والعسجدي ومنو جهري يتبارون في تمجيد فتوحه ومديح أبنائه. وخلفت كل هذه الإمارات السالفة في إيران الدولة السلجوقية، وفي عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبي سعيد بن أبي الخير وسنائي وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنوري يتجهون نحو التصوف. وتعم هذه الموجة شعراء إيران في القرون التالية من أمثال الشيخ سعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي.

وينبغي أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسي وأصحابه لم يكن يُقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربي في إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية: الرابع والخامس والسادس.

(١) ترجمت الشاهنامة بمصر في العصر الأيوبي، ترجمها أبو الفتح البنداري، ونشر ترجمته في القاهرة الدكتور عبد الوهاب عزام.

وأكبر دليل على ذلك أنه بينما ألفت المجلدات الضخام عن الشعر العربي في تلك القرون على نحو ما تصور ذلك مجلدات اليتيمة ودمية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسي كتاب يضم بين دفتيه شعراؤه، وأول كتاب عني بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفي المؤلف في أوائل القرن السابع الهجري. ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية، ولو أن الفتح المغولي لم يحدث في هذا القرن لظل الشعر العربي هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن، على الرغم من الخراب الذي رافق المغول والذي عمَّ إيران، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة، وكانت الحضارة العربية هي التي تسود في كل تلك الديار، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكزخان وهولاكو من تدمير، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات. أما المدن فقد أنزلا بها خراباً لا مثيل له في التاريخ.

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور. وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية في إيران وبالتالي للشعر والعلم العربيين، ومع ذلك فقد ظل العلم العربي حياً وبالمثل الشعر، وإن فقدوا كثيراً من نشاطهما الهائل القديم. ولا بد أن نعرف أن لغة العلم في إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجري هي العربية، فبها كان يكتب علماءهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيروني في القرن الخامس والزمخشري والفخر الرازي في القرن السادس ونصير الدين الطوسي والكاتب القزويني المعروف بدبيران في القرن السابع. وسعد الدين التفتازاني وعضد الدين الإيجي في القرن الثامن والسيد الشريف الجرجاني في القرن التاسع. ففي كل هذه القرون - وخاصة حتى القرن السابع - لم تستطع الفارسية أن تستولي تماماً على السنة العلماء الإيرانيين، حقاً قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيروني، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التي يذيع بها كتبه ومعارفه، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية في القدرة على التعبير العلمي بفضل ما تتسم به من مرونة في الاشتقاقات، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية، تزخر بمصطلحات العلم، فكان من الصعب أن

تحل الفارسية محلها، ويصور ذلك البيروني قائلاً: " إلى لسان العرب نقلت العلوم في أقطار العالم، فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة.. والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية. ويعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية. (فسرى أنه) قد ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزاع الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة (الفارسية) إلا للأخبار الكسروية والأسفار الليلية^(١) ".

وظل هذا الشعور ماثلاً في نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجري، فكانوا يشبّون في مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية، بل إننا نجد ذلك نفسه عاماً بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لساناً لهم منذ الرودكي، ولذلك مظهر عام عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية، فإن الألفاظ العربية تكثر في أشعارهم، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغوراً، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه.

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأناطه أولها المثنوي، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول - منذ بشار، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليله ودمنة وما نظم من الشعر التعليمي^(٢)، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب.

والضرب الثاني القصيدة، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة.

والضرب الثالث الغزل، وموضوعه غزلي أو صوفي وأبياته لا تزيد عن اثني عشر بيتاً إلا في النادر، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية.

(١) انظر كتاب الأدب الفارسي في العصر الغزنوي للدكتور علي الشابي (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن كتاب الصيدلة للبيروني.

(٢) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها.

والضرب الرابع الرباعيات، وهي تتألف من أربعة شطور، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربي ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية^(١)، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما في قسم العراق.

والضرب الخامس المسمط، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكون من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة، ما عدا الشطر الأخير فإنه مستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة. وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث.

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فصل عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه، بل لقد ظل الشعر العربي يعزیه طوال القرون التالية، ولذلك مظاهر مختلفة فيه، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه ينظم بنفس الصورة العربية، فللمدحة مقدمة من النسب ومن وصف الطبيعة، وكأننا نقرأ مدحة عربية مترجمة على نحو ما يتضح عند شعراء الدولة الغزنوية: منو جهري والعسجدي والعنصري والفرخي. ونما عندهم - على نحو ما هو معروف - شعر التصوف، ولكنه يتغذى في نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربي عند الحلّاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربي وابن الفارض والسُّهرورديين. ولا يوجد شاعر صوفي من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامي إلا وهو يحسن العربية ويتربى ثقافياً في مهادها، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربياً، وهو يقل عند بعضهم حقاً، ولكنه على كل حال يرمز في قوة إلى هذا التواصل الوثيق^(٢) بين شعراء الفارسية وشعراء العربية. وشاعت بينهم طريقة هي أن يقتبسوا في بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية، ويسمون

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٧.

(٢) من يرجع إلى كتابات الثعالبي والباخرزي يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بهما، انظر اليتيمة ٨٨/٤ ودمية القصر ٢/٢٦٠، ٢٨٠، ٣٤٤، ٣٦٢.

ذلك الملمع، فالشطر أو البيت العربي يلمع في المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق. ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معاني أبيات عربية، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان "متنبي وسعدي" طبعه في طهران، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم في شعر سعدي الشيرازي، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة، ويتلوها ما استظهره سعدي من الأحاديث النبوية في نحو ثلاثين صحيفة، ويعرض تضمينه لمعاني أبيات الشعر العربي في أشعاره في نحو خمسين صحيفة، وهي أبيات تمتد من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي بصورة بقوة ثقافة سعدي الشيرازي بالشعر العربي على مر العصور، ويلى ذلك تضمين سعدي أشعاره معاني أبيات المتنبي في نحو خمسين صحيفة. وبجانب ذلك يذكر أشعار سعدي العربية الخالصة. وسعدي أو الشيخ سعدي هو أحد ثلاثة يعدون أنه شعراء الفرس في تلك الحقب، والاثنان الآخران جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه. فإذا قلنا إن الشعر الفارسي كان دائماً الاتجاه إلى الشعر العربي، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه في قوة لم تكن مغالين.

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسي للشعر العربي في تلك القرون، فإننا نجد أصحابه يعنون منذ نشأته بمصطلحات البديع التي أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية في إيران وغير إيران، وأكبر مثل يوضح ذلك "كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر" لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة، وقد أورد فيه ستة وخمسين فناً من فنون البديع، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصري والفرخي والعسجدي ومنوجهري والمنطقي وأضرابهم، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فناً إلا حاكوه فيه، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف، فمن ذلك تقليدهم "لزوم ما لا يلزم" في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى، وتقليدهم الأبيات التي يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل

حروف كلماته في الكتابة، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة، والأرقط وهو البيت الذي يتولى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب، والأخيف وهو الذي تتولى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة. وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيراً للغز، والتضمين، والتقسيم، وحسن التعليل، والمثل.

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربي الماضي والمعاصر له خطوة خطوة، يتبعه في الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة، وكان الشعر العربي هو الأكثر شيوعاً، وهو الذي يدور على كل لسان، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربيين مثل بديع الزمان الهمذاني إذ تروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية، وبالمثل أبو الفتح البستي، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية. ولكن هذا النظم ضاع، وبقي له ديوانه العربي، ومثلها الباخري ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوفي في كتابه الباب، وظل ديوانه العربي تتناقله الأجيال حيناً من الدهر. ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال، فكثر من ينظمون بالفارسية، وأصبح المعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة، كما هو الشأن في سعدي الشيرازي الذي مر بنا حديث عنه، أما قبل ذلك فكان الشعر العربي هو الأكثر ذيوماً، وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب، غير من كان ينظمه من الشعراء، ويعدون بالملئات.

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه، وفي مقدمتهم عضد الدولة، وكان ينظم شعراً حسناً، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، كما يقول صاحب اليتيمة، وقد أنشد له أبياتاً طريفة في الشراب والطرب من مثل قوله^(١):

ليس شَرِبُ الكأسِ إلا في المطرِ وغناء من جوارٍ في السحرِ

وكان الشعراء يفدون عليه ويجزل لهم في صلاتهم ومكافآتهم، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة. وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يليقه، أو يصفوا شيئاً عرض لهم، ونضرب لذلك مثلاً: أن بعض الوافدين حياه بأترجة حسنة، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها^(٢)، وابتدأ بقوله: "وأترجة فيها طبائع أربع" فقال أبو محمد بن هندو: "وفيها فنون اللهو للشرب أجمع" فقال أبو القاسم: "يشبهها الرائي سبيكة عسجد" فقال أبو الحسين بن فارس: "على أنها من فارة المسك أضوع" فقال أبو عبد الله الطبري: "وما اصفر منها اللون للعشق والهوى" فقال أبو الحسن البديهي: "ولكن أراها للمحبين تجمع". وبذلك تكونت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً. وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه اليتيمة: "احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا بقصرون عنهم في الأخذ برقاب

(١) اليتيمة ٢/ ٢١٨.

(٢) اليتيمة ٣/ ١٧٦ وما بعدها.

القوافي وملك رق المعاني، فإنه لم يجتمع بيباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بيباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وأبي الشَّيْص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن مناذر، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان وبالري وجرجان مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني وأبي القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلوي وأبي الحسن الجوهري وبنو المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمذاني وإسماعيل الشاشي وأبي العلاء الأسدي وأبي الحسن الغويري وأبي دلف الخرجي وأبي حفص الشهرزوزي وأبي معمر الإسماعيلي وأبي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمه. ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر". ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تحصى، ومع كل مدحة كان يأمر بصلته. وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته، وكثيراً ما كان يعرض موضوع، فيتنافس فيه الشعراء، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبهان، فتبارى نحو عشرين شاعراً في وصفه^(١)، منهم أبو سعيد الرستمي، وفيه يقول^(٢):

وسامية الأعلام تلحظ دونهما	سنا النجم في آفاقها متضائلاً
نسخت بها إيوان كسرى بن هُرمز	فأصبح في أرض المدائن عاطلاً
متى ترها خلت السماء سُرّادقاً	عليها وأعلام النجوم مواثلاً
وماء على الرضراض يجري كأنه	صفائح تَبَرٍ قد سُبُكْنَ جداولاً ^(٣)

(١) اليتيمة ٣/ ٢٠٣.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٠٦.

(٣) الرضراض: الحصى الصغار في مجاري المياه.

ولما حصل الصاحب، وهو بجرجان، على فيل ضخم كان في عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه في تشبيب القيدة على وزن قافية قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

أعددتُ للحدَثانِ سا بَغَةً وَعَدَاءً عَلَنَدَى^(١)

وأنشد أبو الحسن الجوهري في هذه المباراة قصيدة استهلها بمديح الصاحب، ثم أخذ في وصف الفيل وصفاً مرحاً بمثل قوله^(٢):

يَزْهَى بِخَرْطُومٍ كَمَثْ لَ الصَّوْلُجَانِ يَرِدُّ رَدًّا
أَوْ كَمِّ رَاقِصَةٍ تَشْ يَرْبُهُ إِلَى النَّدْمَانِ وَجَدًّا
وَكأنه بوقٌ تَحْ رَّكُهُ لَتَنْفَخَ فِيهِ جَدًّا
أَذْنَاهُ مَرْوَحَتَانِ أَسْ سَدَّتَا إِلَى الْفُودَيْنِ عَقْدًّا

ونفق بِرَدُونٍ (بغل) أبي عيسى بن المنجم، بعد أن طالت صحبته له، فأوعز الصاحب إلى من حلوه من الشعراء الندماء أن يَعَزُّوا أبا عيسى فيه ويكوه له، ونظم منهم عشرة قصائد فكاهية سُمِّيت بِالْبَرْدُونِيَّاتِ منها بردونية أبي القاسم ابن أبي علاء وفيها يقول^(٣):

لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ الْخَيْلُ مَا ذُقْنَ بَعْدَهُ شَعِيرًا وَلَا تَبْنَأُ وَمُتَنَ غَلِيلًا
وَفِي كُلِّ إِصْطَبَلٍ أَنْيْنٌ وَزَفْرَةٌ تَرَدَّدُ فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا
وَلَوْ وَفَّتِ الْجُرْدُ الْجِيَادَ حَقْوَقَهُ لَمَا رَجَعَتْ حَتَّى الْمَمَاتِ صَهِيلًا

وفي هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أصبهان والرِّي لعهد بني بويه، وبالمثل كان الزَّيَّاريون وفي مقدمتهم قابوس بن وَشمكير يشجعون الشعراء ويجزلون لهم في العطاء، ويذكر الباخرزي في دُمَيْتِه أبا بكر الخُسْرَوِيّ الذي كان ينظم باللسانين

(١) اليتيمة ٢٢٩/٣ والسابعة الدرع. والعلندي: الغليظ، وأراد به الفرس.

(٢) اليتيمة ٢٣١/٣.

(٣) اليتيمة ٢١٨/٣.

العربي والفارسي، ويقول: "كانت له وظائف كل سنة من الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير والصاحب أبي القاسم بن عباد تُدَرّ عليه، وتتسابق إليه"^(١). وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين، وكذلك من الدولة السامانية، وفي عصامتها بخاري يقول الثعالبي: "كانت بخاري في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر"^(٢) ويذكر مجلساً من مجالسها ضمّ أبا الحسن اللّحّام وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبي الثياب وأبا النصر الهَرثَمي وأبا نصر الطريفي ورجاء بن الوليد الأصبهاني وعلي بن هرون الشيباني وأبا إسحق الفارسي وأبا القاسم الدينوري وأبا علي الزوزني إلى غيرهم ممن ينتظم في سلكهم من الشعراء. وليست الخواضر وحدها هي التي اختصت بالنشاط الشعري، فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجرّجان وطبرستان وخوارزم وفارس والأهواز ونيسابور وهراة. وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في يتيمة من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً، وزادوا عن المائتين في الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة وترجمات ضافية وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة، منهم آل ميكال في نيسابور، وفيهم يقول الثعالبي: "القول في يل ميكال وقدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وجمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريقة يستغرق الكتب ويملاً الأدرج ويخفي الأقلام، وما ظنك بقوم مدحجهم البحري وخدمهم ابن دريد وألف لهم معجم الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يُبليها الجديدان، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر"^(٣). ويدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبي وشعري أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم، بل يفد عليها كثيرون

(١) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي) ٢٥٩/٢.

(٢) اليتيمة ١٠١/٤.

(٣) اليتيمة ٣٥٤/٤.

غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق، على نحو ما يلقانا في نيسابور، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطارئين عليها من لبلدان شيء، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم.

ونيسابور من بلدان الدولة السامانية، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والري والخرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بدیع الزمان الهمذاني وغزنة عاصمة الغزنويين، فكل هذه البلدان وما يماثلها، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان.

ومن يرجع إلى هذه الكتب يخيل إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان، وكان الأمراء ورعاته في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير، وكانوا يعينون لهم مرتبات، كما مر بنا يصدقون عليهم إغداقاً كثيراً، حتى ليقال إنه حصل للأبيوردی الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبی في عصره ولا بن هاني في مصره. فلا عجب أن يتكاثر الشعراء، فقد كان الشعر وسيلة حياة رغبة، ولذلك قلما ترى شاعراً من مئات التي ترجم لها الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد والأصبهاني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم.

وليس هذا وحده كل ما دعا الشعر إلى النشاط في إيران، فقد كان يعد جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف، وهذا هو السر في أنك قلما تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر، ويتخذ أداته في التعبير عن مشاعره، تجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا، ويتسع ذلك عند الفقهاء، وكأنهم كانوا يعدون الشعر من آلات عملهم، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل، من

ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النيلي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منه هذه الأبيات الغزلية البديعة^(١):

ما حالٌ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابهُ ما حالٌ مَنْ كَسَرَ التصابيَّ بابَهُ
نادى الهوى أسماعه فأجابه حتى إذا ما جازَ أغلق بابَه
أهوى لتمزيق الفؤاد فلم يجد في صدره قلباً فشقَّ ثيابهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشاشي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر، وكان أكبر من صاح في قومه لغزو الروم عام النفير، وذلك أن نقفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله^(٢):

ثغوركُم لم يبقَ فيها لوْهَنكم وضعفكم إلا رُسومُ المعالمِ

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كريت (إقريطش) وسروج وعلى أبواب سميساط والحدث ومرعش والمصيصة وطرسوس. ورد عليه فخره ونقضه نقضاً الشيخ القفال بقصيدة طنانة يذكر لها فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاوّل وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وما سبوا من آلاف الجوّاري الرومّيات، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك الساماني منصور بن نوح (٣٥٠-٣٦٦هـ) التي تزحف بقضها وقضيضها ورعودها وبروقها المميّنة، يقول:

أنتك خراسان تجرّ خيولها مَسومةٌ مثل الجرادِ السوائِمِ
كهول وشبان حمّة أحامس^(٣) ميامن في الهيجاء غير مشائِمِ
ونرجو بفضل الله فتحاً معجلاً ننالُ بِقُسْطَنْطِينِ ذاتِ المحارمِ

(١) السبكي ١٧٩/٤.

(٢) السبكي ٢٠٥/٣ وما بعدها.

(٣) أحامس: أشداء.

هناك نرى نَقفورَ والله قادرٌ
ينادى عليه قائماً في المقاسمِ
ويجري لنا في الروم طراً وأهلها
وأموالها جمعاً سهامِ المغانمِ
فيضحك منا سنٌ جذلان باسمِ
ويقرعُ منه سنٌ خزيان نادِمِ

وراء القفال أمة في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في الزهد، وسنترجم منهم للقشيري بين شعراء الزهد والتصوف. وأنشد السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هما علي بن عبد العزي الجرجاني والأرجاني وسنترجم لهما بين شعراء المديح، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأبيوردي وسنترجم له بين شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرجاني، وكان لعل بن عبد العزيز ديوان سقط من يد الزمن. وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً، مثل حمد بن محمد الخطابي البستي الذي مر حديثنا عنه بين المحدثين، وقد ترجم له صاحب اليتيمة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره، وكان ينظمه أيضاً المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري، وله ديوان شعر لما ينشر، وهو زاحر بالأدعية والابتهالات. وتروي كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة، وكان كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر، منهم الجوهري إسماعيل بن حماد صاحب معجم الصحاح، وله ترجمة في الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبي طائفة من أشعاره، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي المجمل ومقاييس اللغة، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من شعره من مثل قوله^(١):

مَرَّتْ بنا هَيْفَاءُ مَقْدُودَةٌ
تركية تنمى لتركِي
ترنو بطرفِ فاتنٍ فاترٍ
أضعفَ من حُجَّةٍ نحويٍّ

ومنهم ابن فورجة البروجردي، وله ترجمة في الجزء الأول من تتمة اليتيمة وكذلك في الجزء الأول من دمية القصر، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذي أنشده الثعالبي^(٢):

(١) اليتيمة ٣/ ٤٠٢.

(٢) تتمة اليتيمة ١/ ١٢٤.

ألم تطرب لهذا اليوم صاح
إلى نغم وأوتار فصاح
كأن الأنيك يوسعنا نثاراً
من الورق المكسر والصّحاح
تميد كأنها علّت براح
وما شربت سوى الماء القراح
كأن غصونها شرب نشاوى
تصفق كلّها راحاً براح

ومر بنا أنه كان ناقدًا بصيرًا، كما كان شاعراً فذاً وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر فارسي معاصر له يسمى المعروفي على هذا النمط.

يظنون ما تذرني جفوني أدْمَعاً
بل الدم منها يستحيل فيقطر
تعيد بياضاً حمرة الدم لوعتي
كما أبيض ماء الورد والورد أحمر

ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين، وقد ضمنه كل ضمن كتابه ديوان المعاني طائفة من أشعاره، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره. ومثله الثعالبي صاحب اليتيمة ومر بنا حديث عن بعض نظرات نقدية له، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها في كتاب لطائف المعارف وفي كتبه الأخرى. ومثلها عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وفي ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره. وهو باب يطول إذا أخذنا نحصي شعراء العلماء من كل صنف، إنما هي أمثل فحسب، أردنا بها أن نصور تفتح ينابيع الشعر العربي على ألسنة المثقفين من كل لون. وكان من أقربهم إلى هذه الينابيع كتاب الدواوين، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد في الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب نثره. بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على ما لهم من أشعار، حتى إنه يكاد يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتابها وآثارهم الثرية عند السامانيين والخوازميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتي عفواً. وكثير من كتاب هذه الدول والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبي بكر الخوارزمي الكاتب المشهور ومثل بديع الزمان وأبي الفتح البستي والباخرزي وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم، ومثلهم

الصاحب بن عباد والعماد الأصبهاني، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية.

شعراء المديح

يكثر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة. ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش، ومررت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا- أو كان كثير منهم- يأخذ رواتب من الوزراء والحكام، وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويغدون بالمدائح الرائعة، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نظم في عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً، إذ لم يكذب ينبح شاعر في إيران إلا قصده، وقدم له مدائحه، وقصده المتبني بشيراز في سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة، كما قصده شعراء العراق وفي مقدمتهم السلامي الشاعر، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي^(١):

غريبٌ على الأيام وجدانٌ مثله وأغربٌ منه بعد رؤيته الفقرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبر حلةً وفينا لأن جُزنا على بابهِ كِبَرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول، ونظمت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة، ولأبي سعيد الرستمي مدائح بديعة في أولهما من مثل قوله^(٢):

بقيت مدى الدنيا ومُلكك راسخٌ وظللك ممدودٌ وبابك عامرُ
يردُّ سَنَّاكَ البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفوا نَدَاكَ البحرُ والبحرُ زَاخرُ

(١) اليتيمة ٤/ ٢٢٢.

(٢) اليتيمة ٣/ ٣٠٣.

وبالمثل كان وزراء بني بويه ممدحين، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتبني الذي وفد عليه بمدينة أرجان ومدحه بقصائد رائعة، ومثل ابن نباتة السعدي الشاعر العراقي، وله فيه مدائح جيدة، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان^(١):

قَدِمَ الرَّئِيسُ مَقْدَمًا فِي سَبْقِهِ فكأنما الدنيا جَرَتْ في طَرْقِهِ
وكأنما الأفلاك طَوَّعَ يَمِينِهِ كالعبد منقاداً لِمَالِكِ رِقِّهِ
قد قاسمته نجومها فنحوسها لعدوه وسعودها في أفقهِ

ولعل وزيراً بويياً لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه، وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية، وعقد لهم الثعالبي في تيمته الباب السادس من جزئها الثالث، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله^(٢):

وَرِثَ الْوِزَارَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ موصولة الإسناد بالإسناد
يُرْوَى عَنْ الْعَبَّاسِ عِبَادُوزَا رتته وإسماعيل عن عباد

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وكرها إذ ورثها عن آبائه، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في العصر، من مثل قوله فيه^(٣):

لو كان غيرُ اللهِ يُعْبَدُ ما انثنت إلا إليك أعنة العباد

(١) اليتيمة ٣/ ١٥٨.

(٢) يتيمة ٣/ ١٩٠، ٣٠٧.

(٣) يتيمة ٣/ ٣٠٧.

وهي مبالغة تمجها الآذان، ونراه في نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبر ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور ملغين حرية الإرادة في الإنسان، يقول:

ونصبت للإسلام أكرم راية وقصمت أهل الجبر والإلحاد

وكان الصاحب إمامياً معتزلياً، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صح ما يقول أبو سعيد الرستمي، ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة فيه^(١):

ومن نصر التوحيد والعدل فعله وأيقظ نوام المعالي شمائله

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المائح لم تكن ثناء فحسب، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأُمراء والوزراء، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة، وهي قيمة تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقاً ونفاقاً، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات. وعلى نحو ما نجد في كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بني بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلعمي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية كما أسلفنا، وفيه يقول أبو محمد المطراني الشاشي^(٢):

بلوناك حين يرجّ الولد سي عرفاً ويخشي العدو النكيرا

فلم تك إلا اختياراً نفوعاً ولم تك إلا اضطراباً ضروراً

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدحاً، وللمأموني الشاعر فيه مدائح مختلفة. وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذي لقبه الخليفة بلقبه: شمس المعالي، فقد مدحه كثير من الشعراء، وكان غيثاً مدراراً، فأكثرُوا من مديحه.

(١) يتيمة ٢١٤/٤.

(٢) يتيمة ١١٦/٤ وضروراً: مضراً.

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التي عرضناها سريعاً عند الزيارين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء في دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان. وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين. وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً في مقدمات المدائح بعيد النيروز. واطرد ذلك في مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها. وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية في مديح محمود الغزنوي الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه في إيران وما وراء النهر وفي الهند، ومن رائع ما مدح به قصيدة لبديع الزمان الهمذاني يقول فيها^(١):

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج	أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت	إلينا بسليمان
أطلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام	عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل	لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً	على منكب شيطان
فمن واسطة الهند	إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند	إلى أقصى خراسان

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم، ويسميه ابن خاقان لأنه تركي، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ما عدا إقليمي فارس وكرمان، كما مر بنا في غير هذا الموضع. ويكثر بعده مديح السلاجقة

ووزرائهم، وخاصة نظام الملك، ومداحه يتعاقبون في كتاب دمية القصر بالعشرات، مع أن مؤلفها الباخريزي توفي قبله بنحو سبعة عشر عاماً، وممن ذكرهم بين مداحه الفياض الهروي، وله فيه وفي فتوح سلطانه ألب أرسلان في آسية الصغرى وأسره لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة، يذكر فيها جيش رومانوس الجرار ومناه في احتلال ديار السلطان السلجوقي، وكيف رد الله كيده في نحره، فسحق جيشه سحقاً، وقتل منه ما لا يحصى، وأسر الإمبراطور ووقف بين يدي ألب أرسلان ذليلاً خائفاً، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه. ويصور ذلك كله الفياض الهروي مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً^(١):

إذا ما ملوكُ الأرضِ عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجدِ الأشمِ و غارِبُهُ
أحاسدُهُ مَهْلًا فَهْذِي سَيْوفُهُ وهاتيكِ يومَ المَكْرَماتِ مواهِبُهُ

ويتولى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتولى مديحهم عند الطغرائي والأرجاني وغيرهما من معاصريهما. وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من عليّة القوم يخصهم الشعراء بمدائحهم، وقد دبجت فيهم قصائد كثيرة. وكانوا يهتنون كثيراً بالأعياد فحسب، بل أيضاً بالمواليد، وفي اليتيمة والدمية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة. وكثر في العصر مديح الفقهاء والعلماء يمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم، من ذلك ما أنشده الباخريزي لأبي المطهر الأصفهاني في أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية في نيسابور، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة^(٢):

يا أيها المولى الأجلُّ ومَنْ بهُ أصبحتُ آمِنَ مَنْ تَحَصَّنَ في الدُّرَى
أَنْبَتَنِي ورعيتني وسموتَ بي غُصْنًا بأبكارِ البيانِ منورًا

ولابن عنين قصيدة رائعة سيرها من نيسابور إلى الفخر الرازي بهراة، وفيها يشيد بقضائه على البدع في عصره، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات في

(١) الدمية ٢/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) الدمية ١/ ٤٣٤.

الفلسفة والطب، غير أن ابن عنين دمشقي، وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيخوهم وأساتذهم من العلماء والفقهاء. وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطغرائي والأرجاني.

علي^(١) بن عبد العزيز الجرجاني

من جرجان، وفد على نيسابور في صباه، وسمع على شيوخها، وتخرج بهم فقيهاً شافعيّاً ناهياً، وولى قضاء موطنه جرجان ثم ولاه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الري، ثم جعله قاضي القضاة بها، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ ومُهل تابوته إلى جرجان فدفن بها، وترجم له الثعالبي في يتيّمته فقال: "هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، ودرّة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خط ابن مقلّة إلى نثر الجاحظ ونظم البحري". ومربنا حديث عن كتابه "الوساطة بين المتنبّي وخصومه" وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره. وهو في الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه، كما يصور ذوقاً شعرياً مصفى. وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح، وقد روى له الثعالبي طائفة من مدائحه في قواد عصره وولادة جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان، وللصاحب بن عباد القدح المعلى من مدائحه من مثل قوله:

يا أيها القَرْمُ الذي بعلوّه نال العلاءُ من الزمانِ السُّولا

قسمتُ يداك على الورى أرزاقها فكنوك قاسمَ رزقها المسؤلوا

وهي مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم، ولكنها كانت تستحب في عصره، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف. وكان الصاحب بحراً فياضاً

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتيمة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٣/٢٧٨ والسبكي ٣/٤٥٩ والمتنظم ٧/٢٢١ وشذرات الذهب ٣/٥٦ ومرة الجنان ٢/٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٤/٢٠٥.

أغدق الصلوات على زواره وقاصديه، وله يصف بلاغته التي عرف بها في النثر والشعر
جميعاً:

سَبَقَتْ بأفراد المعاني وألْفَتْ خواطِرُك الألفاظَ بعد شِراذِمِها

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنَا على مسروقها ومُعَادِها

وهو معنى طريف، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمده بالمعاني الغريبة النادرة، وكان
يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مدائحه من مثل قوله للصاحب:

لا وجفونٌ يغضُّها العَدَلُ عن وجناتٍ تذيبها القُبْلُ

ما عاش من غاب عن ذِراكٍ وإن آخرَ ميقاتٍ يومه الأَجَلُ^(١)

وله في عيالاته حين يمرض قصائد بديعة، وأخرى في تهنئته حين ييل من مرض ألم به أو
حمى نزلت بجسده، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه، ومن قوله في تهنئة له
بالشفاء:

بك الدهرُ يَنْدِي ظِلُّهُ وَيَطِيبُ وَيُقْلَعُ عما ساءنا ويتوبُ

وأنشد له الثعالبي قصيدة طويلة في وصف دار الصاحب التي بناها بأصبهان وتبارى
الشعراء في وصفها على نحو ما مر في حديثنا، كما أنشد له أيضاً قصيدة فكهة في رثاء برذون
أبي عيسى بن المنجم، استهلها بقوله:

جَلَّ اللهُ ما دَهاك وعَزَّا فعزاءٌ إن الكريمَ مُعَزَّى

هي ما قد علمت أحداثُ دهرٍ لم تدعْ عُدَّةً تُصانُ وكَنَزاً

وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفي فيه بأن يجعل الطبيعة مقدمة
للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله، بل يجعلها جزءاً من الممدوح ومن عمله

(١) الذرا: الكنف والظل.

وشيمه وفكره، وكأنها صورة منه، أو كأنها مرآة له، يقول في وصف بعض الرياض الجميلة
الساحرة مادحاً لأبي مضر محمد بن منصور والي جرجان:

أباتت يد الأستاذ بين رياضها	تدفق أم أهدت إليها سحابها
ألبسها أخلاقه الغر فاغتدت	كواكبها تجلو علينا كواكبا
أوشت حواشيها خواطر فكره	فأبدت من الزهر الأنيق غرائبها
أخالته يصبو نحوها فتزينت	تؤمل أن يختار منها ملاعبا

ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية، وهي قدرة تلقانا في غزله كما تلقاها
في مديحه، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض ليالي أنسه مع منى قلبه:

وليالٍ كأنهن أمان	من زمانٍ كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كثوس	دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعد وألف وصول	ومنى تستلذها الأوهام

وواضح ما في الأبيات من خيال دقيق، فكأنه كان يعيش في حلم، يتعاطى خمر الأنس
المسكرة، ومن قوله في الغزل:

قد برح الشوق بمشتاقك	فأوله أحسن أخلاقك
لا تحفه وارغ له حقه	فإنه آخر عشاقك

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم، يراه متعة لا
تعدلها متعة، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله، وفي ذلك يقول:

ما تطعمت لذة العيش حتى	صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من العِلد	سم فما ابتغى سواه أنيسا

فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة، وكانت نفسه أبية شديدة الإباء، لا يهينها ولا يذلها
فدون الذل والهوان الموت، وفيهم يذل الإنسان ويهون أفي سبيل المال والغنى؟ بؤساً لها وله
إن هو اقترف في نفسه هذه الجناية الكبرى، وفي ذلك يقول:

كأني ألاقي كل يوم ينوبني بذنبي وما ذنبي سوى أنني حرُّ
وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقرُ
وبيني وبين المال شيان حرماً علي الغنى: نفسي الأبية والذهرُ

إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يدمر حياة
الإنسان، فتعساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتبأ له، وله أبيات رائعة في عزة النفس،
وخاصة عزة نفس العلماء، اشتهرت في عصره وبعد عصره، وهو يمضي فيها على هذا
النمط:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
إذا قيل: هذا منهل قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظماً
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلماً
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدماً
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً إذن فاتباع الجهل قد كان أحزماً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظماً
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهماً

وهو يصور في الأبيات نفس العالم الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى
حد، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يروى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذي نفسه،
وإنه ليزدري الطمع في الدنيا الذي يتحول بالعالم إلى ما يشبه دوارة الريح فهو يدور مع
نفعه المهين، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً، وإلا

كان الجهل خيراً منه وأكثر عائداً على صاحبه، ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنسوه ولطخوه بهوان أليم.

الطغرائي^(١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمد، الكاتب الشاعر الذي غلب عليه لقب الطغرائي لعمله في دواوين الطغراء، وهي الطرة التي يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء في أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذي يصدر الكتاب باسمه. وقد ولد بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبي الأسود الدؤلي، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدي جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة^(٢) ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة، فسال الشعر على لسانه، ووفد به على الرؤساء، وكان من أول من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان، وأعجب به وبشعره، فعينه كاتباً في الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه، ورحب به، وحدث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة، وألقى به في غياهب السجون، وظل الطغرائي يحفظ له صنيعه معه ويواسيه في محتته ببعض أشعار يدبجها في مدحه، وكان نظام الملك حصيفاً، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه، وظل الطغرائي يعمل في دواوينه، كما ظل على صلته به يمدحه في المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة في الشرق وفي الغرب على شاكلة قوله:

(١) انظر في ترجمة الطغرائي وشعره معجم الأدباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمعاني ٥٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفدي لشرحه على قصيدة الطغرائي، لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطغرائي للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، وديوان الطغرائي مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع سروج لها وأهم شروحها شرح الصفدي (طبع القاهرة).

(٢) العلم عند العرب لألدوميلي ص ٣٠٧-٣١٠ وكتاب الشعر العربي السالف للدكتور علي جواد الطاهر ١٥٥/٢.

خَيْسٌ أَقَاصِي الشَّرْقِ تَرْزُمُ تَحْتَهُ وَتَرْجُ مِنْهُ أُخْرِيَاتُ الْمَغَارِبِ ^(١)
يَلْفَهُمْ بِالرَّعْبِ قَبْلَ طِرَادِهِمْ وَيَهْزِمُهُمُ بِالْكَتَبِ قَبْلَ الْكَتَائِبِ

وفي هذه الأثناء يتزوج، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد في نفسه شجى عميقاً عليها، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله:

بِنَفْسِي مِنْ غَالِيَتْ فِيهَا بِمَهْجَتِي وَجَاهِي وَمَا حَازَتْ يَدَايَ مِنَ الْوَفْرِ
وَفَزَتْ بِهَا مِنْ بَيْنِ يَأْسٍ وَخِيْبَةٍ كَمَا اسْتَخْرَجَ الْغَوَاصُ لَوْلُؤَةَ الْبَحْرِ
فَجَاءَتْ كَمَا جَاءَ الْمُنَى وَاشْتَهَى الْهَوَى فَإِنْ بَقَائِي بَعْدَهَا غَايَةٌ وَفِي سِتْرِ
فِيَا مَوْتَ أَلْحَقْنِي بِهَا غَيْرَ غَادِرٍ فَإِنْ بَقَائِي بَعْدَهَا غَايَةُ الْعَدْرِ

وهي مريثة بديعة، فقد أظلمت الدنيا في عيني الطغرائي بعد زوجته الشابة الجميلة. ولم يعد له سوى الأنين والدموع والزفرات، وإنه لشيخ بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه، إذ تركت بي جوانحه ناراً لا تنطفئ، ويتوجه إليها بالخطاب نادباً لحظه العاثر، منشداً:

لَا نَسْتِنَا حَتَّى إِذَا مَا بَهَرْتَنَا سَنَا وَسَنَاءَ غَبَتْ غَيْبُوبَةُ الْبَدْرِ
وَقَدْ كَانَ رَبْعِي أَهْلًا بِكَ مُدَّةً أَحْنُ إِلَيْهِ حَنَّةَ الطَّيْرِ لِلْوَكْرِ
وَأَوَى إِلَيْهِ وَهُوَ رَوْضَةٌ جَنَّةً بِدَائِعُهَا يَحْتَلِنُ فِي حَلَلِ حُمْرِ
فَمَذْ بَنْتٍ عَنْهُ صَارَ أَوْحَشَ مِنْ لَطْفِي وَأَضْيَقَ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبَ مِنْ قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقض وكره ودمرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم في لظى الجحيم، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً ويظل يبكيها وتمر به الأيام، فيسلو عنها ويتزوج ويرزق الولد، وهو في أثناء ذلك يعمل في دواوين السلاجقة، ويتوفى نظام الملك، وتضطرب به الحياة، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح والثناء،

(١) ترزم: تسقط إعياء.

وتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩-٥١٢هـ) ويصبح في عهده نائباً في ديوان الطغراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء. ونراه في مدحه له يتحدث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تلقى في قلوبهم من فزع بمثل قوله:

خيل بأرض الرقّتين وراءها	نقع كمزتك الغمام مثار
ريع العدو وقد أحس بقربها	فالجنب ناب والرقاد غرار ^(١)
وعلى خليج الروم منك مهابة	من خوفها يتطامن التّيار
ولقد درى الرومي أن وراءه	خطراً تقاصر دونه الأخطار

ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش في حصن "شاه دز" بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ويتولى السميرمي الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائي والوزير، ويرحل إلى بغداد وينبوه المقام فيذم في بائية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله:

مللت نوائي بالعراق وملني	رفاقي وكانوا بالعراق طرابا
--------------------------	----------------------------

وينظم حينئذ لاميته التي اشتهرت خطأ باسم لامية العجم، وقائلها عربي كما مر بنا في نسبه، وليس فيها أي تعصب للعجم ضد العرب، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم وجعلها على روي لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحاتها شرح الصفدي، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله، شكوى لا تنكسر فيها نفسه، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته، وتظل له فضائله التي يفخر بها، وهو يستهلها بقوله:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل	وحلية الفضل زانتني لدى العطل
-----------------------------	------------------------------

وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ، أو ربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف:

فِيمَ الإِقَامَةِ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنِي بِهَا وَلَا نَاقَتِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي

ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال. ويرحل مع صديق، ويقتربان من حي إضمم بالقرب من المدينة، حي الحبيبة التي ضرب إليها أكباد الإبل، ولكن دونها الحماة بالسهم والبيض والسمر، أو السيوف والرماح، والأسد رابضة حول الكناس. ويتمنى الإمامة بالحى تبرئه من عله، بل ليتمنى الموت في سبيل نظرة، وكل هذا رمز عن مطامحه التي لا يستطيع تحقيقها، وإنه ليصرح بأنه طالب المجد لا بد له أن يغامر وأن يركب الأخطار، فإن لم يتحقق له في بلدة طلبه في أخرى، ويصيح:

إِن الْعَلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تَحَدَّثُ أَنْ الْعَزَّ فِي النُّقْلِ

ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال في أن تقبل عليه الأيام ثانية. ويشكو من الدهر ومن الناس، مع شعور غير قليل بالكرامة، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأعداء قبل الأعداء. ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل زائل، وسنشد قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة. ولا ندري كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعينه وزيراً له، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطغرائي ويقتل بتهمة الزندقة. ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء، فاتهموه بالسحر والإلحاد، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله. والشكوى كثيرة في أشعار الطغرائي وتكفي منها لاميته السالفة. وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار، ومن طرائف غزله:

يَا قَلْبُ مَالِكٍ وَاهْوَى مِنْ بَعْدَمَا طَابَ السَّلْوُ وَأَقْصَرَ الْعِشَاقُ

نازَعَتْهُمْ كَأْسَ الْغَرَامِ أَفَاقُوا

أَوْ مَا بَدَأَ لَكَ فِي الْإِفَاقَةِ وَالْأَلَى

لُدُنْ وَأَنْفَاسُ النِّعَمِ رِقَاقُ

يَا حَبْدًا نَجْدٌ وَأَعْرَاقُ الثَّرَى

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثلث والمثاني والانتشاء بالخمير في مباحج الربيع، وطبيعي أن يتردد الفخر في أشعاره، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته، وله يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم:

مِنْهَا فَمَا أَحْتَاجُ أَنْ أَعْلَمَ

أَمَّا الْعُلُومُ فَقَدْ ظَفَرْتُ بِبُغْيَتِي

عِلْمًا أَنَارَ لِي الْبَهِيمَ الْمَظْلَمَ

وَعَرَفْتُ أَسْرَارَ الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة، ونقل منها الدكتور علي جواد الطاهر طائفة^(١) تصور هذا الضرب من شعره العلمي أو التعليمي. ويكثر عند الطغرائي ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضي ومهيار في بعض قصائدهما، بل أيضاً معارضته من سبقهما من الشعراء، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة، ومع ذلك حاول الصفدي في شرحه لها جاهداً أن يرد معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقه. وكان الطغرائي كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف، وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون، كان آخرهم البارودي في لامية له مشهورة.

(١) انظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ١٥٥ / ٢.

الأرجاني^(١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهوز من بلاد إقليم خُوسْتان، وُلد سنة ٤٦٠ وبقِل العباد الأصفهاني فيه: "منبت شجرته أرجان، وموطن أسرته تُسْتَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محتده، سلفه القديم من الأنصار" فهو عربي النجار، فارسي الموطن. وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق، فظل بها، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيًا، يُحَسِّن الحكم بين الخصوم وألْفَتِيَا. وتفجر الشعر على لسانه، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام المللك. منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة، وظل ينظمه إلى وفاته بُسْتَر سنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفي ذلك يقول:

أنا أشعرُ الفقهاء غير مُدافعٍ في العصر، بل أنا أفقهُ الشعراء

وأعدته معرفته العميقة بالفقه لكي يشتغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان، تارة بتسْتَر، وتارة بعسكر مُكْرَم عن قاضيتها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء، وفي ذلك يقول:

ومن النوائِبِ أني في مثل هذا الشغل نائب
ومن العجائب أن لي صبراً على هذِي العجائب

وكان يُحَسِّن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُّبَاعيَات، وأكثر شعره في المديح، ونراه كما مر بنا يمدح نظام المللك حتى إذا خلفه الوزير تاج المللك مدحه بلامية يقول فيها:

كم موقفٍ دون العلاء وقفته والخيلُ بالأسل الطَّوال تصوِّلُ

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١/١٥١ والسبكي ٦/٥٢ وشذرات الذهب ٤/١٣٧ ومرآة الزمان ٣/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٠٦ والمنتظم ١٠/١٣٩. والنجوم الزاهرة ٥/٢/٢٨٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان في أرجان.

ونراه يمدح وزراء بركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه. وفي مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول:

فأتى به العصر الأخير وقصرت
عن شأوه وزراء كل الأعصر

ويظل على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة، يروح إليهم ويغدو بالمدائح، وله في السلطان محمود مدائح مختلفة، من مثل قوله:

أعلى السلاطين في يومى ندى ووغى
رأياً وأفضلهم سراً لإعلان

ويمدح وزيره السميمى الذي يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس سيئ السيرة، ولعله اضطر إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالضغرابي، وله يقول في بعض مديحه:

وأنقذت دين الله من شر مارق
وكان كشلو بين ناييه ناشب

وخصّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة، وصلته به قديمة منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد، وله يقول:

أحلّك سلطان السلاطين رتبة
يضيق بها ذرع الحسود المساجل

وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها، وله في اخليفة المستظهر (٤٨٥هـ - ٥١٢هـ) غير مدحة، ونراه يلجج فيما لجج فيه قديماً مروان بن أبي حفصة وغيره من شعراء العصر العباسي الأول حين كانوا يتحدثون عن شرعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم، ويزعم الأرجاني أن الرسول عليه السلام بشر بها عمه وأنها تكون في أبنائه، يقول:

بكم قديماً رسول الله بشرنا
كما به بشرتنا سالف النذر

وقال من بعد للعباس في ملأ
أفخر فأنت أبو الأملاك في مضر

وولى المسترشد (٥١٢-٥٢٩) فضل يقدم إليه مدائحه، واصفأ له بالبأس والشجاعة والإقدام محذراً أعداءه من جيوشه وما تدمر وتحطم وتسحق كل من يقف في طريقها سحقا. وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير، وفيهم يقول:

لله در بني جهير إنهم جهروا بدين المجد حتى أعلنوا

ونوه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد، وله فيه نحو عشرين مدحة يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه. كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد الدولة محمد بن عبد الكريم، وله يقول في بعض مدائحه:

أمين أمير المؤمنين الذي اصطفى وسهم أمير المؤمنين المسددا

وله غزليات رقيقة، وهي مطبوعة مثل غزليات الطغرائي بطوابع الشريف الرضي ومهيار، ونقص الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته:

أأحبتي الشاكين طول تغبي والذاهبين على الهوى في مذهبي

ما جبت آفاق البلاد مطوفاً إلا وأنتم في الورى متطلبي

سعي إليكم في الحقيقة، والذي تجدون مني فهو سعي الدهر بي

أنحوكم ويرد وجهي القهقري سيري، فسيري مثل سير الكوكب

فالقصد نحو المشرق الأقصى له والسير رأى العين نحو المغرب

تالله ما صدق الوشاة بما حكوا أنى نسي العهد عند تغري

والأبيات تحمل معاني وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجاني وأنه كان يعرف كيف يُطرف بصوره ومعانيه، مما جعل القدماء يشيدون به، ومن معانيه الغريبة:

رأى لي وقد ساويت في نحوله خيالي لما يكن لي راحم

فدلس بي حتى طرقت مكانه وأوهمت إلفي أنه بي حالم

وبنا ولم يشعر بنا الناس ليلة أنا ساهر في جفنه وهو نائم

وهو بعد في الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم، وكان مثل الطغرائي يشكون من الزمن ومن الناس، وقلما تجد شاعراً في هذا العصر لا يشكو، ومن شكواه قوله:

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم	أخا ثقةً عند اعتراض الشدائدِ
تطلعتُ في حالي رخاءً وشدّة	وناديتُ في الأحياء هل من مساعدٍ
فلم أر فيما ساءني غيرَ شامتٍ	ولم أر فيما سرّني غيرَ حاسدٍ
تمتعتما يا ناظريَّ بنظرةٍ	وأوردتما قلبي أمرَّ المواردِ
أعينيَّ كفّا عن فؤادي فإنه	من البغى سعيَّ أثنين في قتل واحدٍ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلعان في قلبه من جحيم الفتنة بالجمال. وله رباعيات كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف، وقد نظم في مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على ثمانين رباعية. ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته في نظم بيت يُقرأ طرداً وعكساً مثل قوله:

أحبُّ المرءَ ظاهرةً جميلٌ	لصاحبه وباطنه سليمٌ
مودّته تدومُ لكلِّ هولٍ	وهل كلُّ مودّته تدومُ

فالبيت الثاني يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره، ونجد عند الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب، بل على أربع قواف، وهي تدل على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة. ولعل في كل ما أسلفنا ما يوضح شخصية الأرجاني الشعرية.

شعراء المراثي

نشط الرثاء طوال هذا العصر، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة، وانضم إلى ذلك كرم فياض، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذي كان غيثاً مدراراً للشعر والشعراء، فأتوه من كل فجٍّ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات، ونرى الثعالبي في يتيمة يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعرا التي قيلت في مديحه، وبالمثل الأخرى التي قيلت في رثائه، من ذلك قول أبي سعيد الرستمي^(١).

أبعد ابن عبَّادٍ يهشُّ إلى السُّرى أخو أملٍ أو يُستَراحُ جوادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لهما حتى المعادِ معادُ

وحمل تابوته من الرِّىِّ إلى أصفهان، ودُفن في محله تُعرَف بباب دُزيه، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه، وتقدّم أبو منصور أحمد بن محمد اللّجيميّ ويُنشد معبراً عنه بقلبه: "كافي الكفاة"^(٢):

ثوى الجود والكافي معاً في حُفيرةٍ ليأنس كلٌّ منهما بأخيه
هما اصطحبا حَيَّين ثم تعانقا ضجيعين في قبرٍ باب دُزيه

ومرّ بنا الحديث عن محمود الغزنوي وفتوحه في إيران والند وملازمة للجهاد ونشر الإسلام، وكان مثقفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء، وأقبلوا عليه يصنّفون له كثيراً من الكتب في فنون العلوم، وقصده الشعراء من جميع البلدان في إيران،

(١) اليتيمة ٣/ ٢٨٠.

(٢) اليتيمة ٤/ ٤٠٩.

فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياءه، فلما توفي بكاه غير شاعر، وفي مقدمتهم أبو علي الحسن بن محمد الدامغاني، وفيه يقول ^(١):

مَضَى الْأَفْعَوَانُ الصَّلُّ وَالْأَسَدُ الْوَرْدُ وَتَاجُ مَلُوكِ الْأَرْضِ وَالْفَارِسُ النَّحْدُ
وَلَمْ أَدْرِ أَنْ الشَّمْسَ يَسْتَرِهَا ثَرِيٌّ وَلَا الْفَلَكَ الْأَعْلَى يُغَيِّبُهُ لَحْدُ

وأحسَّ الشراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور، الذي عَمَّ العلماء والشعراء ببرّه، وألّفت باسمه مصنفات كثيرة، وكان مجلسه يَغُصُّ دائماً بالفقهاء والقراء والأدباء، فلما توفي أكثر الشعراء من رثائه، ومن جِدِّ ما قيل فيه قول ختنه شبل الدولة مقاتل بن عطية ^(٢):

كَانَ الْوَزِيرُ نَظَامُ الْمَلِكِ لَوْلَاةٌ يَتِيْمَةٌ صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفٍ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الْأَيَّامُ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا، غَيْرَةً مِنْهُ، إِلَى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه، فمن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البوشنجي لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان، وفيه يقول ^(٣):

أَوْدَى الْإِمَامُ الْحَبْرُ إِسَاعِيلُ هَفَى عَلَيْهِ فَلَيْسَ مِنْهُ بَدِيلُ
بَكَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ وَفَاتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالتَّنْزِيلُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ تَنَاوَحَا حَزَنًا عَلَيْهِ وَلِلنَّجْمِ عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدثين وأئمة الإسلام كثيراً، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل ايتيمة ودُمِيَّة القصر وكتب

(١) تتمة اليتيمة ١/ ١٥٣ والأفعوان الصل: الذي لا تفيد معه الرقية، والورد: الفاتك.

(٢) ابن الأثير ١٠/ ٢٠٦.

(٣) السبكي ٤/ ٢٨٣.

التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت، من ذلك قول أبي
الفرج حمد بن محمد الهمداني في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجويني^(١):

علومٌ علتْ أعلامها غبراتها وأعينُ أعيانٍ طغتْ عبراتها
وأفلاذُ أكبادٍ من الفضل فتَّتْ فدلَّتْ على تفتُّيتها زفراتها
تداعتْ مباني الدين وانهد رُكنه وهُدِّمَ من أطواده صخراتها

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم
يبلغه غزارة مادةٍ وتفنناً في العلوم من الأصول والفروع. ولما توفي أغلقت الأسواق في
نيسابور إجلالاً له وتكرمة، وكُسِرَ منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه، كما يقول ابن
خلكان، وأكثروا فيه من المراثي، كقول بعض تلاميذه^(٢):

قلوبُ العالمين على المَقالي وأيامُ الورى شبهُ الليالي
أيثمرُ غُصْنُ أهلِ العلم يوماً وقد مات الإمامُ أبو المعالي

ونجد بين أساتذة الزمخشري أستاذاً مغموراً درس عليه النحو، يسمى أبا مضر
منصوراً، ومع ذلك نراه - حين يلبي نداء ربه - يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً، فيرثيه
بقوله^(٣):

وقائلة: ما هذا الدرُّ التي تساقطُ من عينيك سِمَطينَ سِمَطينَ
فقلتُ هو الدرُّ الذي كان قد حشا أبو مُضَرٍّ أذني تساقطَ من عيني

وهي صورة بديعة، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه، أودعها الزمخشري في سمعه
فجرت من مدمعه.

(١) الدمية ١/ ٥٥٧.

(٢) ابن خلكان ٣/ ١٧٠.

(٣) ابن خلكان ٥/ ١٧٢.

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوههم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم وأبائهم وللباخريزي رثاء لأبويه، ولأبي الحسن الحسيني البلخي رثاء جيد لأمه^(١). ومر بنا عند الطغرائي رثاؤه لزوجته التي ماتت في ريعان الشباب، وفي ديوانه مرثية لها قافية، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مطرقتان، وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ، يقول:

ولم أنسها والموت يقبض كفها ويبسطها والعين ترنو وتطرق
هلال ثوى من قبل أن تم نوره وغصن ذوى فينانه وهو مورق

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به، وهو لا يكاد يصدق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً، والدموع تنهل على خديه، وكله حسرات ولوعات.

ومر بنا في كتابي العصر العباسي الأول والثاني بكاء الشعراء للمدن، حين تنزل بها صواعق النهب والحريق، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون، وبكوا البصرة حين هجم عليها الزنج في أواسط القرن الثالث ودمروا مساكنها وفتكوا بأهلها. وكانت كارثة هذا العصر أعظم وأطم، ونقصد تدمير المغول لبغداد في سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها نحو مليون أو يزيدون، وأشعلها بها الحرائق وأعملوا النهب حتى في الكتب والمكتبات، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية، أو قل كان ذلك أفولاً لنجمها الذي طالما تألق في سماء البلاد العربية جميعاً، وطبيعي أن نجد من شعراء إيران من يكون المدينة العظيمة، وفي مقدمة من بكأها منهم الشيخ سعدي الشيرازي المتصوف الفارسي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة، وهو يشتهر بكتاباتهِ الصوفية الفارسية التي يمثلها كتاباه: **جُلستان** و**بوستان**، غير أشعار فارسية وعربية كثيرة، وقصيدته^(٢) في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله:

(١) الدمية ٢/٢٠٨.

(٢) متنبى وسعدي للدكتور حسين محفوظ (طبع طهران) ص ٧٣.

حبستُ بجفنيّ المدامعَ لا تَجْري فلما طغى الماءُ استطال على السَّكر^(١)

ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على علمائها الراسخين في العلم وكيف تبكي المحابر أئمتها وجهابذتها، وهو يندب ويبكي ويذرب الدموع، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلاً:

أيا ناصحي بالصَّبرِ دَعْنِي وَزَفَرْتِي أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجَمْرِ

ويقول تحولت دجلة دماً قانياً، ويرثى الخليفة الشهيد: المستعصم والشهداء الأبرار ويهنئهم بالفردوس، ويتحدث عن سبايا المسلمين، والمغول يسوقونهن في الصحراء، والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربي المجيد وكيف وقعت فريسة لذئاب المغول الكاسرة.

ولم نتحدث حتى الآن عن مراثي الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين، ولا ريب في أنها كانت كثيرة، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه، واعتاد الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأتماً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينه لاستشهاده، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القاتمة مراثي كلها أنين وزفرات. ونشر الشيخ محمد آل ياسين للمصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين، ونراه يألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة، التي مثل فيها بحفيد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يكرر في مراثيه الأنين والبكاء والدمع المdrار. وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل في الشعر الشيعي بعامة، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه في الخلافة. ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المختفي ورجعته ليرد حق أسرته الضائع ويعيد س الشريعة. والأشعار المتصلة به تغرق لا في الرثاء، بل في المديح، مثل الأشعار المتصلة بالإمام علي، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان، وخير قصيدة

(١) السكر: ما سد به النهر.

تصوره قصيدة بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته وظله^(١). ونتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء.

أبو الحسن^(٢) علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدباء عصره وشعرائه، ونراه يقربه منه ويرفع مكانته عنده. ويتخذ في ندمائه، وتستهل ترجمته في اليتيمة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب الصاحب في أصبهان يشيد فيها به، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر. ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام، كما يقول الثعالبي، حتى يلبي نداء ربه، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠، ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين، ومما يروى له في بكاء الحسن قوله:

أهل الكساء صلاة الله نازلةً عليكم الدهر من مثنى ووحدان

أنتم نجوم بني حواء ما طلعت شمس النهار وما لاح السماكان

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يروى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء، وقال: نحن أهل البيت.. ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسباء كل من كانوا معه من أهله، وله مرثية أخرى للحسين يبدوها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادياً قائلاً:

يا أهل عاشور يا لهفي على الدين خذوا حدادكم يا آل ياسين

اليوم قام بأعلى الطف نادبهم يقول من ليتيم أو لمسكين

يا عين لا تدعى شيئاً لغادية تهمني ولا تدعى دمعاً لمحزون

(١) انظر الكشكول للعاملي (طبعة الحلبي) ١٧٦/١.

(٢) انظر في الجوهري اليتيمة ٢٧/٤ وأعيان الشيعة ج ٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شبر (طبع بيروت)

١٣٠/٢ وما بعدها.

يا آل أحمد إنَّ الجوهرِيَّ لكم سيفٌ يقطعُ عنكم كلَّ مَوْضُونٍ^(١)

والأبيات تصور المأساة تصويراً مخزناً ملتاعاً. والطف هو الموضع الذي استشهد فيه الحسين، والجوهرِي لا يرقأ دمه، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكف ولا تجف، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر.

وينشد الثعالبي للجوهرِي أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ول بعض الوجهاء، كما تتصل بالغزل وبتصوير بعض الأطمعة وبهجاء بعض الأشخاص، وله خمریات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة، كقوله في دعوة بعض أصدقائه إلى الصبح:

شجرٌ مُدَنَّفٌ وجوٌّ عليلٌ وصباحٌ يميل كالنَّشْوَانِ

صاحٍ إنَّ الزمانَ أقصرُ عمراً أن يُراعَ المنى بصرفِ الزمانِ

رَقَّ عني ملاحفُ الليل فانْهَضْ برقيقٍ من صَوْبِ تلك الدَّنانِ

كعصير الخدود في يَقِقِ الأو جه أو كالدموع في الأجفانِ^(٢)

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة في التصوير، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته، وأن يأتي بصور مبتكرة، على شاكلة قوله:

صَكَّ النسيمُ فراخَ الغَيْثِ فانزعجتْ يَنْفُضُنْ أجنحةً من عَنبرِ الزَّغَبِ

ويقول الثعالبي: لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشعيرات الريش المتطايرة.

(١) الموضون: الدرع المنسوج.

(٢) اليقق: شدة البياض.

شعراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يريشون سهام الهجاء في هذا العصر كما كانوا يريشونها في العصور السابقة، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم، وقد تسدد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً، لمجرد أنه تأخر في جائزة شاعر، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر، أو لأنه أسخطه لأي سبب من الأسباب. ومر بنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينهال عليه المديح انهبالاً لكثرة ما كان يغدقه على الشعراء، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مات، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبي العلاء الأسدي، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحة له، شديد الاختصاص به، ممتد الغرة والتحجيل في شعرائه وصنائه وندمائه. وكان يوده ويأنس به ويكتبه نثراً ونظماً. وإليه كتب: "أبا العلاء شيخي أين ذلك الميعاد؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد (الأمطار).. وأين كتبك التي هي ألد من انتهاء النفس إلى رجائها، وابتداء العين في إغفائها". ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً، فأسرع بهجوه بقوله^(١):

يأوى المساجد حراً ضراً بادي

إذا رأيت مسجى في مرقعة

به الخطوب إلى لؤم ابن عباد

فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت

وهو يصفه باللؤم، ويصغر من جوده الذي شاع عنه في سخرة مرة. وانتقم للصاحب من أبي العلاء الأسدي زميل له من الشعراء يسمى عبدان الأصبهاني جعله عرضة وهدفاً لأهاجيه، ومن قوله فيه^(٢):

بشَيْن هذا النسب البارد

أبا العلاء اسكت ولا تؤذنا

(١) اليتيمة ٢٧٧/٣.

(٢) اليتيمة ٢٩٨/٣.

وتدعي في أسدِ نسبةً
لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدٍ
أقم لنا والدّةَ أولاً
وأنت في حلٍّ من الوالد

وهي سخريّة لاذعة. ومن كبار الهجائيين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن اللحام، وفيه يقول الثعالبي: لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه، وكان لا يهجو إلا الصدور، وفي مقدمتهم البلعمي وزير السامانيين وفيه يقول^(١):

وزارة البلعمي منقلبه
وهو كقفلٍ غدا على خربته
لم يرع للأولياء حرمتهم
فيها ولا للوجوه والكتبه
فهو أحقُّ الوري بداهية
تضحى لها رأسه على خشبه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مثله للناظرين، وكان عبدان أنف الذكر يستثيره كثيراً فما زال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام، وهدهاه طول تفكيره إلى قوله فيه^(٢):

عبدان هامته للصّفع معتاده
لا سيّما من أكف السادة القاده
كأن أيدي الندامي في تناولها
أيدي صيام إلى كيزان برّاده

والبرادة: إناء يبرد الماء. وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحيانا عند بعض الشعراء حداً يجعلهم يعمونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودي الرازي في قوله^(٣):

لا يصحبن ملوكنا إلا امرؤ
لص مغنٍ مفلس قواد
فله لديهم زلفة ومناة
ولن تخرج واستغف كساد

(١) اليتيمة ١٠٨/٤.

(٢) اليتيمة ١١٢/٤.

(٣) تنمة اليتيمة ١٢٣/١.

والبيتان يمسخان الملوكة حينئذ مسخاً. وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها، ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلطوا عليها سهام هجائهم، وقد يتعرضوا للصفة في الشخص ذميمة، فيهجونه بها، كصفة الحمق، ولابن حَسول يهجو المتكبرين عليه^(١):

دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلُ فغربَلُ عَصْعَصُهُ وانتَحَلُ^(٢)

وأظهر من نخوة الكبريا ء مالم أقدر ومالم أَخَلُ

فقلتُ له مؤثراً نُصَحَهُ وقد يُقْبَلُ النَّصَحُ ممن نَخَلُ

إذا كنتَ سيدنا سُدْتُصنا وإن كنتَ للخال فاذهبْ فَخَلُ

أخَلْ بحقْ دُهابةِ الرِّجالِ فما زال يُصَفِّعُ حتى أَخَلُ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف، وقد دخل عليه فلم يقم له، وكأنها هم أن يرفع نفسه وعصعصه أو مؤخرته، ثم تحلَّى عن ذلك وتمكَّن من مجلسه، فعرف أنه متكبر متعاضم، وهو مالا يكاد يظنه، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخل القول وعرف صوابه وخطأه، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخل عنك، غير أنه لم يستمع نصحه فما زال يُصَفِّعُ، حتى أصابه الخلل.

وكان الفخر في هذا العصر يراف الهجاء كما رافقه في العصور السابقة، وقلما يحسن الشعر أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر، ويلقانا فخر كثير للشعراء، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح^(٣):

ألا إنني أَرُمِي بكلِّ بديعةٍ يَتَنِّ بِالْبَابِ الرِّجالِ لواعبا

(١) دمية القصر ١/ ٤١٥.

(٢) العصعص: نهاية العمود الفقاري، وغريلة العصعص: تمكته في الجلوس. انتحل: ادعى لنفسه ما ليس له.

(٣) اليتيمة ٤/ ٢٠.

تسير ولم ترحل، وتدنو وقد نأت
وتكسب حفاظ الرجال المراتبا
ترى الناس إما مستهما بذكرها
ولوعاً وإما مستعيراً وغاصباً

فأشعاره كلها- في رأيه- بدائع وطرائف، تنتشر في الناس حتى أقاصي الأرض، لكثرة رواتها والمعجبين بها، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة. وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق في الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة.

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس، وهي شكوى قديمة، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك في حياة الشعب، فضلاً عن الشعراء. ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا تصله الجوائز الكبيرة، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره، فتظلم الدنيا في عينيه، ويراهها سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له. ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبّل الأبواب، فبؤساً للعلم يكون هذا جواءه، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه. ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهرة الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وهما أروع ما صُنف في البيان العربي، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فجٍّ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلنونه في نعيم الحياة مخلفين له البؤس والشظف، مما جعله يهتف بمثل قوله (١):

هذا زمان ليس فيه
له سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صاعد
إلا وسلمه النذالة

وأقرأ في اليتيمة وذمية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب. وكثيراً ما كان يحدث لأmir أن يسلب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء، فكان منهم من ينظم الشعر يدعه شجوه، ومرت بنا مأساة قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى

مات لَوَعَة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه، وكان شاعراً كما كان كاتباً، فمضى يشكوى شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه، بل مع غير قليل من الصلابة، على شاكلة قوله ^(١):

قُلْ لِلَّذِي بَصُرُوفُ الدَّهْرِ عَيْرُنَا هل حاربَ الدهرُ إلا مَنْ له خَطَرُ
أما ترى البحرَ تعلم فوقه جَيْفٌ وتستقرُّ بأقصى قَعْرِه الدَّرَرُ
فإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ومسننا من تمادي بؤسه صَرَرُ
ففي السماء نجوزُ ماها عدَدٌ وليس يُكسِفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد، فالزمان كله بؤس وتعاسة، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم، بل كلهم أخسَاءُ أنذال، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني ^(٢):

ما في زمانك ما جدٌ لو قد تأملت الشواهدُ
فاشهدْ بصدقِ مقالتي أولاً فكذبني بواحد

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحداً، وكأنها الناس كلهم أشرار، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة. ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوردي.

أبوبكر ^(٣) الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه، وأقام بالشام مدة. وهو أحد

(١) البيتة ٤ / ٦١ وابن خلكان ٤ / ٨٠.

(٢) الدمية ٢ / ٢٨.

(٣) انظر في الخوارزمي وشعره البيتة ٤ / ١٩٤ وابن خلكان ٤ / ٤٠٠ والوافي بالوفيات ٣ / ١٩١ والشذرات ٣ / ١٠٥ وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها.

الشعراء والكتاب المجيدين في عصره، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته، رحل إلى الشام والعراق وبخاري ونيسابور وسجستان، ثم قصد صاحب بن عباد، فأكرمه وأعلى منزلته، وغمره بما كان سبباً لثرائه وأرتياشه، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عقاراً وضياعاً، وكان لا يزال يأتيه رسم أو راتب من قبل صاحب منذ انصرافه عن حضرته. وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخاري، وناله من ذلك بعض السوء، لولا توسط صاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم. وكان شيعياً وكانت نيسابور سنية، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمذاني على بلدتهم، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع، وتصادف أن توفي الخوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه. وقد خلف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن، غير أن في كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره في النسيب والغزل والمديح والمراثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء، وكان طبيعياً أن يصبه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه، أو صادروا، بعض ماله وضرّجوا به في سجونهم، وأفرجوا عنه، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله:

جَزَى اللهُ عني أَهلَ سامانَ ما أَتوا	وفي الله للثأر المضيع طالبُ
هم زوّجوني الهَمَّ بعد طلاقه	وذلك عُرْسٌ للمآثم جالبُ
وأنحَضُوا لزُرعي بالحصاد وأنْضَبُوا	مياهاً لها أيدي سِواهم مَذائبُ
أَتَحْصِدُ أيديكم وَيَزْرَعُ غَيْرُكم	فأنتم جَرادٌ والموكُ سحائبُ

فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم، ويأكلونه ناراً، وكأنهم جراد منتشر يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة. تروي من يعيشون في بقاعهم القريبة وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين. وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق، يقول:

مالي رأيتُ بني العباسِ قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
قلّ الدراهم في كفى خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور، وكان يغيب الخوارزمي الشيعي المتعصب لتشيعة الغالي في تعصبه أن يرى أحيانا فقيهاً يلقي ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدعي عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف.

مَجْبُرٌ صَيَّرَ ابنه ناصبياً مجبراً مثله وتلك عجيبة

والمجبر الذي يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة في يد القدر يوجهه كيف يشاء. وأسخطه طاهر بن شار الطبرستاني، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله:

لله في كل ما قضاه لطائف تحتها بدائع

سُبْحَانَ مَنْ يُطْعَم ابن شارٍ ويترك الكلب وهو جائع

وهو إقذاع مريّر، فقد جعله دون الكلب وأقل منه، وحتى يد الصاحب بن عباد الذي طالما أسبغ عليه من نواله، بل لقد جعل له راتباً معلوماً، كما قدمنا، يصله في نيسابور، نجده يחדشها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له، فإذا هو يذمه ذماً قبيحاً قائلاً:

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هطلت يداه بالجوّد حتى أججلّ الديا

فإنها خطراتٌ من وساوسه يُعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فعطاياه التي طبقت الشعراء في إيران وغير إيران إنما هي وساوس وهواجس تلم به أحياناً. وهو كفران شديد للمعروف، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولي نعمته.

وتراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب، فإذا هو يضخم عتابه ويحيله هجاء قائلاً:

بكيتُ عليك بالعين التي لم تزل من سوء فعلك بي تجودُ
فها أنا ذا المهنا والمعزى وها أنا ذا الشقي بك السعيدُ
وما أصبحت إلا مثل ضرسٍ تأكل فهو موجودٌ فقيدُ
ففي تركي له داءٌ دويٌّ وفي قلعي له ألمٌ شديدُ

وطبيعي لمثل الخوارزمي الذي كان ينشب أظفاره في الحكام والأصدقاء والناس أن يتبرم بهم جميعاً وبدنياء وبالدهر، حتى ليقول:

لا تشكر الدهرَ خيرَ سببه فإنه لم يتعمد في الهبة
وإنما أخطأ فيك مذهبَه كالسَّيل إذ يسقي مكاناً حربَه

وله وراء ذلك كله مداح في البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها. وفتح الثعالبى له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته أشعار غيره في شعره، وهم يمتدون على الحقب من العصر الجاهلي حتى عصره.

الأبيوردي^(١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد، من أبناء معاوية بن محمد عفيد عينة بن أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي، مولده ومنشأه بأبيورد في خراسان، وقد تفقه على إمام الحرمين الجويني بنيسابور، وله فيه مدائح بديعة. وسمع عبد القاهر الجرجاني، ولعل له أثراً في رهافة ذوقه الأدبي. وأكب على المعارف يحصلها، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد يصنف كتباً

(١) انظر في الأبيوردي وشعره معجم الأدباء ١٧/ ٢٣٤ وابن خلكان ٤/ ٤٤٤ والوافي بالوفيات ٢/ ٩١ والسبكي ٦/ ٨١ والمنتظم ٩/ ١٧٦ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٥١، ٢٠٦ وابن الأثير ١٠/ ٢٨٤ ومرآة الجنان ٣/ ١٩٦ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٤١ وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ٤/ ١٨ وإنباه الرواة ٣/ ٤٩ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بليسان.

مختلفة في الأنساب وغيرها. وفتح له الشعر والأدب العمل في دواوين السلاجقة في بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم. ويبدو أنه ظل في بغداد طويلاً، إذ يروى عنه أنه قال: كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية، وبعد أنا أرتضخ لكنة أعجمية. وفي بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك، فلما عادى هذا الوزير عميد الدولة بن منوهر هجاء الأبيوردي، فدس عليه عند الخليفة أنه هجاء ومدح صاحب مصر الفاطمي. وخشي الأبيوردي على نفسه فترك بغداد إلى همدان حتى سكن جأشه وهدأ روعه. وتدل على الحقبة التي أمضاها ببغداد قصائده في الخليفة المقتدى (٤٦٧-٤٨٧هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة. ويقول بعض الرواة إنها هجر بغداد لأنه كان يرشح من كلامه نوع تشييب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة. فاضطر إلى مفارقتها بغداد إلى همدان، وبقي فيها مدة يدرس ويفيد ويصنف. وقال العمادة في الخريدة: تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ)، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانتته قدماءه وتوفي على الأثر، فحمل إلى منزله بأصفهان، ويقال: بل لم يسق السم، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابع الفزع فارتعد وسقط ميتاً.

ويعد الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر، وديوانه كبير، وقد وزعه على أقسام، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات. وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة، ويقولون إنه كان إذا صلى قال: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها، ولعل هذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله:

يا مَنْ يُسَاجِلُنِي وليس بمدرِكٍ	شَاوَى وَأَيْنَ لَهُ جَلَالَةٌ مَنْصِبِي
لا تتعبنَ فدُونَ ما أَمَلْتَهُ	خَرَطُ الْقَتَادَةِ وَامْتِطَاءُ الْكُوكَبِ ^(١)
والمجدُ يعلمُ أَيْنَا خَيْرٌ أَبَا	فاسأله تعلمُ أَيَّ ذِي حَسَبٍ أَبِي

(١) القتادة: نبات له شوك كالإبر، وفي المثل: "من شديدة دونه خرط القتاد" يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة.

جَرُّثُومَةٌ مِنْ طِينِهَا خُلِقَ النَّبِيُّ

جَدِّي معاويةُ الأعْرُ سَمَتْ بِهِ

فَبَنُو أُمِّيَّةٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِي

وَوَرَّثَتْهُ شَرَفًا رَفَعَتْ مَنَارَهُ

وهي صورة جامعة من الاعتداد بالآباء، وأين بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من بني هاشم؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو. وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول:

وَقَمَّةُ الْمَجْدِ عِنْدِي مَوْطِئُ الْقَدَمِ

النَّاسُ مِنْ خَوْلِي وَالْدَهْرُ مِنْ خَدَمِي

وَالْدَهْرُ يُنْشِدُ مَا يَهْمِي بِهِ قَلَمِي

وَالنَّسْرُ يَتَّبِعُ سَيْفِي حِينَ يَلْحَظُهُ

لَمْ تَرْضَها لِمَرْجِي نَائِلِي هَمَمِي

لَوْ صِغَتْ الْأَرْضُ لِي دُونَ الْوَرَى ذَهَبًا

بِهِ تُشَامُ السَّرِيحِيَّاتُ فِي الْقِمَمِ^(١)

وَعَنْ قَلِيلٍ أَرَى فِي مَازِقٍ حَرَجٍ

فِي مَسْلَكٍ وَحَلٍّ مِنْ عَبْرَةٍ وَدَمٍ

وَالْبَيْضُ مُرْدَقَةٌ تَبْدُو خِلَافَهَا

وَالْعِزُّ فِي ظُبَةِ الصَّمْصَامَةِ الْخِذَمِ^(٢)

فَالْمَجْدُ فِي صَهَوَاتِ الْخَيْلِ مَطْلَبُهُ

وهو يحلم حلمًا غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تسبى فيها النساء النابات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه، والدهر ينشد مجده الحربي شعراً حماسياً ملتبهاً. وطبيعي أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذي لا ينيله مطامحه، وهي شكوى تمتزج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله:

أَعِزُّ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَهَوْنُ

تَنْكَرُ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرِ أَنَّنِي

وَبِتُّ أَرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ

فَبَاتَ يُرِينِي الْخُطْبَ كَيْفَ اعْتَدَاؤُهُ

(١) تشام: ترى، السريحيات: ضرب من السيوف.

(٢) الصمصامة: السيف، الخدم: القاطع.

وهذا الجانب في الأبيوردي واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجر على بيت المقدس، وهو استشعار يحمد له، فإنه أحس الكارثة التي نزلت بالإسلام وأهله، حين دنس الصليبيون بأقدامهم الحرم القدسي، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حماهم المستباح في قصيدة طويلة يقول فيها:

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجِمِ	فلم يبق منا عُرْصَةٌ للمَراجِمِ ^(١)
وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها	على هفواتٍ أيقظتُ كلَّ نائمٍ
وإخوانكم بالشام يُضحي مَقيلُهُم	ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعِمِ ^(٢)
وكم من دماءٍ قد أبيضتُ ومن دُمى	تُوارِي حياءَ حُسْنِهَا بالمعاصِمِ
أترضى صناديدُ الأعراب بالأذى	ويُغضي على ذلِّ كُماةِ الأعاجِمِ
فليتَهُمُ إذ لم يذودوا حِمَّةً	عن الدين ضُنوا غيرةً بالمحارِمِ

والقصيدة استنفار قوي للمسلمين من العرب والأعاجم كي يقفوا سداً منيعاً دون حماهم وحى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كيدهم إلى نحورهم، وهي أولى القصائد التي أخذت طوال قرن تصوب أبياتها، بل سهامها، إلى صدور أعداء الإسلام، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم، وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وللأبيوردي وراء ذلك مدائح كثيرة في الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها، وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالي، وكانت له مريثة بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت، غير أن ديوانه خلا منها، كما خلا من مريثته للغزالي، التي

(١) المراجع: القبيح من الكلام.

(٢) المذاكي: الخيل، القشاعم: النسر.

أشار إليها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان. وله بيتان طريفان في هجاء أبي النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي، وكان شاعراً، ويستعمل في شعره لزوم ما لا يلزم الذي اشتهر به أبو العلاء في لزومياته، فقال فيه:

شعر المراغي - وحوشيتم -
 كَعَقْلِهِ أَسْلَمَهُ أَسْقَمُهُ
 يَلْزَمُ مَا لَيْسَ لَهُ لَازِماً
 لَكِنَّهُ يَتْرُكُ مَا يَلْزَمُهُ

والسخرية واضحة، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع، بينما يغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء في الشعر بروي واحد، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً في صنع الشعر ونظمه.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حاراً متدفقاً طوال هذا العصر، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يشدُّ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه، لا يشدُّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد. وظل للغزل لونه المتقابلان على مر العصور: الغزل المادي والغزل العذري العفيف، وكان طبعياً أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجواري وكان كثيرات منهن يحسنّ الغناء، فملأن قلوب الرجال شغفاً وهياماً. واقرأ في تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائماً مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمال معنى وجمال صورة وجمال صوت، على شاكلة قول ابن العميد^(١).

ظَلَّتْ تُظَلِّلْتُ مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي
فَأَقُولُ وَاعْجَباً وَمِنْ عَجَبٍ مَسَّ تَظَلَّلَنِي مِنَ الشَّمْسِ

وهي صورة بديعة لما فيها من لفت قوي إلى جمال صاحبه، وكان خليفته في وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبي طائفه من المقطوعات، من ذلك قوله^(٢):

قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَدَارِهِ
قُلْتُ دَعْنِي وَجْهَكَ الْجَنَّةَ لَهُ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ

(١) اليتيمة ٣/ ١٧٨ .

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٥٤ .

وواضح أنه عمد في البيت الثاني إلى الاقتباس من الحديث النبوي: "حُفَّتِ الجنة بالملكاه" وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله. وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية.

وكانوا يتورطون أحياناً في الغزل بالغلمان، وهو وصمه في جبين العصر، تضاف إلى مثيلتها في العصر العباسي، وربما كانوا ينظمونه تندرأً ودعابة، أو تقليداً لأسلافهم، وهو تقليد بغض. ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نَحَوْ هذا النوع المقيت عن غزلهم، مؤثرين أن يَطْبَعُوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذي لا يعرف المتاع المادي للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العناق، إنما يعرف نيرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامئ الذي لا يَرَوَى صاحبه أبداً، فدائماً فراق ودائماً حنين واستيقاق، ودعاء كما قال أبو العلاء الأُسدي^(١):

سَتُّوا بالفراق سَمْلِي وَلَكِنْ جَمَعَ اللَّهُ سَمْلَهُمْ أَيْنَ كَانُوا

وكثيراً من هذا الغزل العذري كان يصوغه العلماء والفقهاء صورة لطهارة نفوسهم ونقاءها وما يتجشمون في الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيء من الغريزة النوعية، فقد تساموا عن الحسّ وكل ما يتصل بالحس. ويكثر في هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحسرات ن الفراق والشوق إلى اللقاء. وربما لم يكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبيوردي، فقد عل للتجديات أو الغزل النجدي العذري قسماً مستقلاً من أقسام ديوانه الكبير، ومن نجدياته:

نزلنا بنعمان الأراك، وللندى سَقِيطٌ بِهِ ابْتَلَّتْ عَلَيْنَا الْمَطَارُفُ^(٢)
فَبْتُ أَعَانِي الْوَجْدَ وَالرَّكْبُ نَوْمٌ وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْهُ السَّرَى وَالتَّنَائِفُ^(٣)
وأذكر خَوْداً إن دعاني على النوى هواها أجابته الدموعُ الذوارفُ

(١) البيتة ٣/٣٣٦.

(٢) نعمان: ودا بين عرفات والطائف. الأراك: من أشجار البادية، المطارف: الثياب.

(٣) التنايف: المفازات. السرى: السير ليلاً.

لها في مغاني ذلك الشعب منزل
لئن انكرته العين فالقلب عارف
وقفت به والدمع أكثره دم
كأنني من جفني بنعمان راعف^(١)

وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنعة، فحولها أسد^٢ يحمونها، بحيث لا يستطيع المحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حماها، فدونها الموت الزؤام، وفي ذلك يقول الطغرائي في لاميته^(٣):

إني أريد طروق الحي من إضم
وقد حماه رمة الحي من ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به
سود الغدائر حمر الحلي والحلل
فالحب حيث العدا والأسد رابضة
حول الكناس لها غاب من الأسل

فهو يريد الإلمام بحي معشوقته في إضم، فيرى دون ذلك أهوالاً، فقد حماه رمة من عشيرة ثعل المشهورون منذ امرئ القيس بحدقهم في رمي السهام، وهم مسلحون بالسيوف والرماح، يحمون نساءهم الفاتنات، الرابضات في الخدور وكأنهن أطباء في كناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح، والأسد جثوم^٤، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر.

أبو الفرج^(٢) بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو، وسقطت كلمة على من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تتمتها. وكان من الناهين في الطب والفلسفة والأدب والشعر، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة. وقد تتلمذ في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن

(١) راعف: من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف.

(٢) ديوان الطغرائي ص ٥٤.

(٣) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣/ ٣٩٤ وتمة اليتيمة ١/ ١٣٤ والدمية ٢/ ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣/ ١٣٦

وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩ وفوات الوفيات ٢/ ٩٥

وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٩٣-٩٥.

الخمار وكان من أجل تلاميذه، ووفد على صاحب بن عباد، فقرّبه إليه، وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة البويهى، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بجرّان سنة ٤٢٠. وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا، ويقول الثعالبي: "هو مع ضربة في الآداب والعلوم بالسهم الفائزة، وملكه رِقّ البلاغة والبراعة، فَوَدَّ الدهر في الشعر وأوحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد، ونظم القلائد والفرائد، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى: (أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)". وَيُنْشِدُ له كثيراً من غزلياته وخاصة في التهمة، من ذلك قوله:

تقول: لو كان عاشقاً دَنَفًا إِذْنٌ بَدَتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ
لا تُنْكِرِيهِ فَإِنْ صُفْرَتَهُ غَطَّتْ عَلَيْهَا دُمَاءُ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بديع، وطبيعي لمن درس الفلسفة أن يحسن التعليل، فصفرته متوارية في خَدَّيْهِ، تُوارِيها دُمَاءُ عَيْنَيْهِ. وتكثر هذه العلل الطريفة في غزله على شاكلة قوله:

عارض وَرَدَ الغصون وَجَنَّتَهُ فَاثْتَفَقَا فِي الْجَمَالِ وَاخْتَلَفَا
يزداد بِالْقُطْفِ وَرَدٌ وَجَنَّتَهُ وَيَنْقُصُ الْوَرْدُ كُلَّمَا قُطِفَا

فوجنة صاحبته وردها غريب، ورد يزيده القطف، إذ يزداد خدّها به خجلاً واحمراراً، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبداً ولا تغيض حمرة، بل لا يزال يولّد فيه القطف ورداً لا ينتهي، ويتلطف لصاحبه له قائلاً:

أَيَا بَدْرًا بَلَا كَلْفٍ بِهِ دُونَ الْوَرَى كَلْفِي
أَبْنِ لِي دُرَّ ثَغْرِكَ مَا بِهِاءُ الدُّرِّ فِي الصِّدْفِ

وواضح أنه يطلب إليها في رقة أن تبسم له، حتى تنفتح له أبواب النعيم على مصاريعها، وعلى مثال هذا التلطف قوله:

قولاً لِهَذَا الْقَمَرِ الْبَادِي مَالِكٌ إِصْلَاحِي وَإِفْسَادِي
زَوِّدْ فَوَادَا رَاحِلًا قَبْلَهُ لَا بُدَّ لِلرَّاحِلِ مِنْ زَادٍ

فكل مسافر لا بد له من زاد، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه: قبله من محبوبته، تظل تغذّي مشاعره، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة. ويحاول في غزله دائماً أن يأتي بصورة مبتكرة، فيجلب كثيراً من الصور الغريبة كقوله:

ليس بي من أذى الفراق اكتئابٌ قد كفتني عني جميع اكتئابي
كلما شئت أسبلت دم قلبي فأرى فيه صورة الأحباب^(١)

فهو لا يكتب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتئبوا، إذ ترد عينه عنه اكتئابه بدموعها التي تنزف فيها دماء قلبه، تلك التي يرى من خلالها صورة الأحباب، فصورتهم لا تغادر دموعه. وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجي فإنه يناقضهم قائلاً:

ليت أن الليل دامت ظلمته فلقد جلت لدينا نعمة
مثلت صدغيك لي ظلمته وأرت خديك عيني أنجمه

فهو يتمثل في الليل محبوبته، إذ يرى في ظلمته خصل شعرها المنسدلة على خديها، ويرى خديها في نجومه المتألقة، وهو بعد في الوهم والتخيل، وله:

قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس إن النفس تنخدع
قد صيغ قلبي على مقدار حبهم فما لب سواهم فيه متسع

وهو ردّ طريف على من يطلبون إليه السلوى عن بعض أحبابه بحب سواهم، فقلبه مشغول دائماً بهم وليس فيه مكان لغيرهم. وله معان طريفة كثيرة في موضوعات الشعر المختلفة، من ذلك قوله في بخيل:

لو ماتض لم يأكل العام إذا ما كان ذاك العام من كيسه
إن لم نشاهد دخان مطبخه فقد شهدنا دخان تعبسه

(١) أسبلت: أسالت.

فهو لا يأكل من كيسه، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنة، ولم يشاهد أحده
دخانا يعلو مطبخه، فدخانه دائماً يعلو وجهه، تعبى ما بعده تعبى. ويقول في النهي عن
اتخاذ الأولاد والإقتناع بالوحدة:

ما لِلْمُعِيلِ وَلِلْمَعَالِي إِنَّمَا يسعى إِلَيْهِنَّ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
فالشمس تجتأب السماء وحيدة وأبو بنات النعش فيها راكد

وبنات النعش نجوم معروفة في السماء لا تكاد تريم، تشاهد بالقرب من القطب الشمالي
ويدعوه أباهاً. وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرِّيِّ دون
طائل:

ضِغْتُ بِأَرْضِ الرِّيِّ فِي أَهْلِهَا ضِيَاعَ حَرْفِ الرَّاءِ فِي اللَّثَغَةِ
صُرْتُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِشِ الْمُنَى يعجبني أَنْ أبلغَ الْبُلْغَةِ^(١)

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراعته في نظم الشعر
والإتيان فيه، وخاصة في الغزل، بالصور والمعاني الطريفة المبتكرة.

أبو الفضل^(٢) الميكالي

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وجهاء نيسابور، وطالما عملوا مع السامانيين في
دواوينهم وولاء لهم على بعض البلدان، ومر بنا تنويه الثعالبي بهم، وفي أبي الفضل يقول:
"الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة
الشمس على البدر، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن
منه كتابة وأتم بلاغة. ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن
بيانه على هذا النمط:

لك في المحاسن معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم تجمع

(١) البلغة: ما يكفي لسد الحاجة.

(٢) انظر في أبي الفضل اليتيمة ٤/ ٣٥٤ وفوات. الوفيات ٢/ ٥٢ وابن خلكان ٣/ ٢٠٢، ٥/ ١٠٩.

بحران: بحرٌ في البلاغة زانهُ شعرُ الوليد وحسن حفظ الأصمعي^(١)

وإذا تفتق نورُ شعرك ناضراص فالحسن بين مرضعٍ ومصراعٍ

أرجلت فرسان القريضورضت أف رلس البديع وأنت أمجد مبدع^(٢)

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل، ويذكر ابن خلكان أنه دخل بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفاً يسمى المختل جمع فيه مختارات شعرية. ويروي الثعالبي له شعراً قاله في نكبة، ويبدو أنه حبس في عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين. وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها نبذ في الغزل من مثل قوله:

لقد راعني بذر الدجى بصدوده ووكل أجفاني برعي كواكبه

فياجزعي مهلاً عساه يعود لي ويا كبدي صبراً على ما كواك به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصداً في قافيتي البيتين، فلكمة "كواكبه" في البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمة "كواك به". وهذا هو البديع الذي يشير إليه مادحاً. إذ شغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصناعة الجناس، حتى ليروي الثعالبي في يتيمة أن شاعراً يسمى أبا حفص عمر بن علي المطوعي ألف في أجناس التجنيس كتاباً، ويقول الميكالي:

أنكرت من أدمعي تترى سواك بها

سلي جفوني هل أبكي سواك بها

والبيتان خفيفتان في موسيقاهما، ولكنه أثقلهما بهذا الجناس المتعمد في القافيتين: "سواكها" و"سواك بها". وقد يجعل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله:

وأصداعه يلسعنني كالعقارب وألحاظه يفعلن فعل العقارب

وقوله:

(١) الوليد: البحري.

(٢) أفراس: ج فرس، فرسان ج فارس.

ألا ليت الجواب يكون خيراً فيشفي ما أحاط من الجوى بي

والعقارب الأولى في البيت الأول: جمع عقرب، والعقارب في نهاية البيت: الخمر، والجوى في نهاية البيت الثاني: حُرقة الوجد ولوعته، وقد أضاف إليها كلمة "بي" ليتم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله، ويقول:

ظبي يحار البرق في بريقه غنيت عن إبريقه بريقه

فلم أزل أرشف من رحيقه حتى شفيت القلب من حريقه

وقد أدخل على كلمة "ريقه" وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتي الشطرين المتقابلين، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولاً إذ جانس بين "رحيقه" و"حريقه" لتداخل الصورة معه ولأ، الجناس ليس تاماً، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلاً ويقول:

شافة كفي رشاً بقبلة ما شفت

فقلت إذا قبلها يا ليت كفي شفتي

والجناس مقبول في البيت الثاني، وربما الذي جعله مقبولاً أن كلمة "كفي" هيأت له واستدعته، فخفف التكلف فيه، ولم تمجّ النفس، ومثله قوله:

ماذا عليه أو أباح ريقه لقلب صب بيتكي حريقه

والجناس هنا بين "ريقه" و"حريقه" مقبول لأنه ليس جناساً تاماً يبدو فيه القصد والتكلف، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام، وقارن ذلك بقوله:

صدف الحبيب بوصله فجفا رقادى إذ صدف

ونثرت لؤلؤ أمدع أضحى لها جفني صدف

فقد جانس بين قافيتي البيتين باستخدامه كلمة "صدف" الأولى بمعنى أعرض، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة، والتكلف شديد الوضوح، وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس الثقيل الذي كثيراً ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة،

ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد^(١) بن المؤمل، وقد روي له منه الثعالبي أبياتاً كثيرة في الغزل وغير الغزل. وللميكالي وراء غزله أشعار في وصف الطبيعة وفي الإخوان، وله مداعبات، ولا يخلوها أيضاً من تصنعه، كقوله:

فَتَيَّ سَخِطَ النَّصَبِ فِي قَدْرِهِ كَمَا رَضِيَ الْخَفَضَ فِي قَدْرِهِ

وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين في النحو، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئاً يطبخ، كما رضي بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة. ومن طريف ما روي له الثعالبي قوله:

كَمْ وَالِدٍ يَحْرِمُ أَوْلَادَهُ وَخَيْرُهُ يَحْطِي بِهِ الْأَبْعَدُ

كَالْعَيْنِ لَا تَبْصُرُ مَا حَوْلَهَا وَحَظُّهَا يُدْرِكُ مَا يَبْعُدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالي، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خصبها واضحا، إذ كان غزير المعاني والصور. وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذي جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه.

(١) انظر ترجمته في اليتيمة ٤/ ١٤٨.

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرًا في إيران طوال العصر، إذ كان هناك من ينغمسون في الملاهي والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروباً من مآسي الحياة وما فيها من اضطراب القيم، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة: سلاطينها ووزرائها. ومرت بنا أبيات لعضد الدولة في غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجواري في السحر. وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها في أشعارهم من مثل قول صاحب بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر^(١)

رَقَّ الزَّجَاجُ وراقَتِ الخمرُ وتشابهها، فتشاكل الأمرُ
فكأنها خمر ولا قدَحُ وكأنها قدَحٌ ولا خمرُ

وكان كثيراً ما يحاكي الصَّنَوْبُري في ثلجيّاته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول^(٢):

أقبلَ الثلجُ فانبَسَطَ للسرورِ ولشربِ الكبير بعد الصغيرِ
أقبلَ الجوّ في غلائلِ نورِ وتعادى بلؤلؤٍ منشورِ
فكأنَّ السماءَ صاهرتِ الأر ضَ فصار النَّثارُ من كافورِ

وكانها يتصور الدنيا تجلو عروساً. وتتكاثر هذه الثلجيّات عند غيره من شعراء العصر، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها في أيام الثلج وزمهيره، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها، وظل ذلك طوال الحقب، ويقول أبو عبد الله الروزباري^(٣):

(١) النجوم الزاهرة ٤ / ١٧١ .

(٢) اليتيمة ٣ / ٢٦١ .

(٣) اليتيمة ٣ / ٤١٦ .

ما لابن هم سوى شرب ابنة العنب
 فهايتها قهوة فراجة الكرب
 أدهق كئوسك منها واسقني طرباً
 على الغيوم فقد جاءتك بالطرب^(١)
 نثار غيث حكي لون الجمان لنا
 فاشرب على منظر مستحسن عجب
 جاد الغمام بدمع كاللجين جرى
 فجذ لنا بالتي في اللون كالذهب

فهي فرحتهم ومسرهم في دنياهم، وهم يعبون منها أوطالاً تلو إرطال حين يكفهر الجو
 بالسحب، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفضضة، التي تتناثر فيها الأمطار،
 وكأنها نثار عرس مفرح، نثار فضي مبهج، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البستي
 المعروف بالغزال^(٢):

وإذا الهموم تطاولت فاطلب لها
 عيشاً هنيئاً بانتزاع مدام
 صهباء تسطع في الكئوس كأنها
 نار بتجيش بوقدة وضرام
 من كف ساق لو سقاك بكفه
 سماً لكان شفاً لكل سقام
 وكأنها معصورة من خده
 إذ ظلت ترمقه بلحظ سام

وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التي تلهب فؤاده، من كف ساق يقدم
 له بها ما يشفي سقامه، ويتخيلها كأنها عصرت من خدود جميلة، وهو يكب عليها غير
 محتشم ولا مفكر في رشاد، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها، وليكن من الإثم ما يكون!
 ودائماً تلقانا هذه الخمرات في تراجم الشعراء، إذ كان يتورط فيها كثيرون من مثل عمر
 الهرندي القائل^(٣):

لا أحب المدام إلا العتيقا
 ويكون المزاج من فيك ريقا
 إن بين الضلوع منى ناراً
 تتلظى فكيف لي أن أطقا

(١) أدهق: أملاً.

(٢) الدمية ٣٥٨/٢.

(٣) اليتيمة ٤٤١/٣.

أرحيقاً سقيتني أم حريقاً

بحياتي عليك يا مَنْ سقاني

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها، ولا يدري أحريق هي أم رحيق لأنها تدفعه دائماً إلى المزيد، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها، إذ تأخذ عليه طريقه. وإنما لتظل تملؤه حباً لها وشوقاً لارتشافها، وهو يرتشف ولا يدري أيرتشف رحيقاً أو ناراً أو قل أيرتشف شراباً هنيئاً أو سماً زعافاً، وهو ممعن في الشرب متعلق به، لا يستطيع فكاً منه ولا خلاصاً. وكان للخمر مواسم عندهم هي الأعياد الفارسية والمسيحية، ففي عيد الشعانين وفي أعياد النيروز والمهرجان والسدق أو النار المجوسية يشربون منها ويعبون في احتفالات صاخبة. وكانوا يشربونها كثيراً وسط الرياض، ولذلك يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج. وتلقانا في أثناء ذلك أبيات طريفة من مثل قول أبي منصور قسيم بن إبراهيم، وكان ينظم باللسانين العربي والفارسي^(١):

وَحَجَّبَ فِي الثَّلَجِ الرَّبِيعَ وَحُسْنَهُ كَمَا اكْتَنَى فِي بَيْضِ فِرَاحِ الطَّوَّاسِ

وكانوا يخرجون أحياناً للصيد والطرْد، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة^(٢). ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التي نجدها عند بعض الشعراء، وهو جانب أشاعه في العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة. ويلاحظ ذلك صاحب الدمية حين يترجم للمشطب الهمداني، فيقول: "له أشعار سخيفة نسج فيها على منوال ابن الحجاج^(٣)" ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش، وحتى الصاحب بن عباد الوزير الوقور تجري أمثلة من هذا الفحش على لسانه في أشعاره^(٤)، وهي وصمة لا شك فيها، وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباهرزي.

(١) تنمة البيتية ٢/ ٤٥.

(٢) البيتية ٢/ ٢٢١.

(٣) الدمية ١/ ٥٧٢.

(٤) البيتية ٣/ ٢٧٢-٢٧٥.

أبوبكر^(١) القهستاني

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رنج من قرى كابل، بزغ نجمه في دولة السلطان محمود الغزنوي، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه في دواوينه، واتصل بابنه محمد، وأصبح رئيساً لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان، وكان ممدحاً، مدحه كثيرون منهم الباخري والفرخي السجستاني الشاعر الفارسي المشهور، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي، بمثل قوله:

محمد بن محمود أبو أحـ	حمد مولى أمير المؤمنين
جلال الدولة العلّاء دنيا	جمال الملة الغلباء دينا
ولي العهد عهد الملك طوبى	لنا إذ ظلّ ظلّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية لعهد من بعده دون أخيه مسعود. وتعد الفترة التي قضاها معه أزهى فترات حياته، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه، وخاصة حين كان يتولى قيادة جيوشه. وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما يني يمزج فيها وفي مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعماة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله:

دقيقة الساق لا عروق لها	تدوس رزق الورى بهامتها
-------------------------	------------------------

وهو لغز أراد به مغرفة الباقلا في يغرف بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى. وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر، ونراها مبثوثة في كتاب اليتيمة في أشعار ابن العميد وغيره، وكأنها دعابات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء. ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعوداً يسلبه منه كما مر بنا في غير هذا الموضع.

(١) انظر في القهستاني تنمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر ٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحنائق السحر في دقائق الشعر

(نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠.

ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد، فيمدح الخليفة القادر بالله
(٣٨٢-٤٢٤هـ) قائلاً:

ولم يرني ذو مَنَّةٍ غَيْرَ خالقي وغيرُ أمير المؤمنين ببابه

ويمدح وزيره وكاتبه أبا طالب بن أيوب، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه
ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان
مسعود الغزنوي على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفي. ولا تعرف
بالضبط سنة وفاته. وكان مثقفاً ثقافة واسعة، إذ يقول القدماء إنه عُنِيَ بتحصيل علوم
الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين. ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاح،
راغباً في اللهو والمزاح، وله في ذلك خاطر وقاد وحكايات متداولة. وله خمریات بديعة،
كان يتغنى فيها المغنون بحضره الأمير محمد الغزنوي من مثل قوله:

قُمْ يا خليلي فاسْقِنِي كُشْعاعَ خَدِّكَ من شرابِ

فلقد يَمُرُّ العيشُ مُنْذُ قَرَضاً ولا مَرَّ السَّحابِ

فانعمْ بعيشك ما استطَعْتَ تَ ولا تُضِعْ شَرَحَ الشبابِ

فلکم أضعَت من الشبا بطلميوس وما استفدت سوى اكتتابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب، قبل أن يفنى عمره الذي يمرّ مسرعاً مر
السحاب، وقبل أن تذبل زهرة شبابه، وكم أضاع من أيام الشباب، ولم يفد - كما يقول -
سوى الاكتتاب والغم والحسرات، ويهتف به ثانية:

تمتّع من الدنيا فأوقاتُها خُلِسَ وعُمُرُ الفتى - مُلِيتَ - أطولُه نَفَسُ

وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيشِ فائِزٍ فما ارتدَّ سَهْمٌ قطُّ يوماً ولا احتَبَسَ

ولا تتقاضَ اليومَ همَّ غَدٍ ودَعْ حديثَ غَدٍ فلا شتغالَ به هَوَسُ

هي الرُّوحُ كالمصباح والراحُ زَيْتُها فدونك عَنِّي إنما الرَّأيُ يُقْتَبَسُ

وهي دعوة ملتهبة لانتهاز فرصة الشراب، فليس في الدنيا وراءه- في رأيه- نعيم ولا متاع، ودعك من الهموم كما يقول، ودع التفكير في الغد. وهي نفس النعمة التي نجدها في رباعيات الخيام الفارسية، فالحياة فانية، وهي سريعة الفناء، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه، بل اللحظة التي هو فيها، ليشرّب وينعم بالشراب، إذ هو زيت الروح، بدونه تنطفئ وتظلم، وبه تضيء ضوء الفرحة والبهجة والمرح. ودائماً ما تلقانا هذه الخمرات البهيجة عند القهستاني وأنداده من شعراء إيران، وإنه ليعلم دائماً أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا، وله وراءها غزليات وأهاج في الوزير الميمندي كاتب السلطان محمود الغزنوي وبعض معاصريه، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته:

تَمَتَّعْ بِيَوْمٍ مُسْعِدٍ النَّجْعِ مُسْعِفٍ وَدَعْ قَوْلَ لَاحٍ مُعْنَتِ النَّصْحِ مُعْنِفٍ

وهي مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات، وأيضاً كان يقتبس كثيراً بعض الآيات القرآنية كقوله في بعض مديحه:

سَمَا بِكَ مِنْ فَوْقِ السَّمَوَاتِ رُبَّةٌ أَبُّ لَكَ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
كَمَا قَدْ دَعَا مُوسَى لِهَرُونَ رَبَّهُ أَنْ (أَشْدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي)

ولا ريب في أنه كان شاعراً بارعاً، كما كان كاتباً نابهاً دونت رسائله كما دونت أشعاره، ويقول ياقوت: "له أشعار فائقة، ورسائل رائعة".

أبو الحسن^(١) الباخرزي

له كنيان أبو الحسن وأبو القاسم، واسمه علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب، من باخرز، من نواحي نيسابور، ونراه يعنى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء بنيسابور. ويكب على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، ويختص بملازمة دروس الفقيه

(١) انظر في الباخرزي كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣/٣٨٧ والنجوم الزاهرة ٥/٩٩

والسبكي ٥/٢٥٦ واللباب ١/٨٣ ومراة الجنان ٣/٩٥ وشذرات الذهب ٣/٣٢٧ وبراون (ترجمة الشواربي)

المشهور لعصره أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين. ويتجه إلى فن الكتابة. ويوظف في ديوان الرسائل لدى الغزنويين، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه ير حل إليهم ويشغل في دواوينهم، إذ يصبح كاتباً للسلطان " طغرل " وله فيه مدائح بديعة من مثل قوله:

سِرْنَا ومِرَاة الزمان بحالها فالآن قد مُحِيتْ وصارت مِنْجَلًا
تَحْدُ الرِّكَابُ فلا تعوجُ بنا على طَلَل الحبيب ولا تُحْيِي المنزل^(١)
وتَحْرِّك الأعطاف تَشْمِيرًا بنا تيمم الملك المظفر طُغْرًا

وقربه منه الوزير الكندري، وكانا يتعارفان في شبابهما، ويبدو أنه هو الذي وصله بطغرل، وكان يلازمه في حله وترحاله، فلما ورد بغداد صحبه معه، وفيها مدح الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر به ديوانه مفتتحاً لها بقوله:

عِشْنَا إلى أن رأينا في الهوى عجباً كلَّ الشهور وفي الأمثال عِش رَجَبًا
أليس من عجبٍ أني ضَحَى ارتحلوا أو قدتُ من ماء دمعِي في الحشا هَبًا
وأنَّ أجفان عيني أمطرتُ ورقاً وأن ساحة خدي أنبتت والتهبا
وإنَّ تلَهَّبَ بَرَقَ من جوانبهم توقدَّ الشوق في جنبي والتهبا

ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم، لما لاحظوا فيه من تكلف وتصنع، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل: "عِش رَجَبًا تَرَّ عَجَبًا" فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة، ومضى في تصنعه، فماء دموعه يوقد جحيماً في حشاه وأجفان عينه تمطر ورقاً أو دموعاً كالفضة الصافية، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهباً، وحين رأى البغداديين يستبدون أشعاره انتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءه وسوقتها مدة، واقتبس من لغتهم وظرفهم، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله:

هَبَّتْ عليَّ صبا تكاد تقولُ إني إليك من الحبيب رسولُ

(١) تحذ: تسرع، تعوج: تميل.

سَكْرَى تَجَشَّمَتِ الرَّبِّيَ لِتَزُورَنِي مِنْ عَلَّتِي وَهَبُوبَهَا تَعْلِيلٌ

فاستحسنها البغداديون وقالوا تغير شعره ورق طبعه. وظل ملازماً الكندري في مدينة الري عصامة طغرل عاملاً في دواوين الدولة، ومقدماً له مدائح كثيرة، إلى أن قبض السلطان ألب أرسلان على الكندري وأمر بقتله، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء. ويبدو أنه أخذ يعني منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذي نرجع إليه كثيراً، مذكراً به على يتيمة الدهر للثعالبي، كما مر بنا في غير هذا الموضع. واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله في إحدى ليالي أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة. وكان ينظم، باللسانين العربي والفارسي، وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها " طرب نامه " أو رسالة الطرب، وهي مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائي للحروف. وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره.

كم مؤمِنٍ قَرَصَتْهُ أَظْفَارُ الشِّتَا فَعَدَا لِسُكَّانِ الْجَحِيمِ حَسُودَا

وترى طيورَ الماءِ في وَكُنَاتِهَا تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّفُودَا

وإذا رَمِيتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهُوَى عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودَا

يا صَاحِبَ الْعُودِينَ لَا تَهْمِلْهُمَا حَرِّقْ لَنَا عُودَا وَحَرِّكْ عُودَا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة، فالمؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تشوى على السفود. ولو رميت في الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا. وينادي على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصلاء. وله غزليات رقيقة من مثل قوله:

قالت وقد ساءلت عها كلَّ مَنْ لَاقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي

أنا في فؤادك فارم طرْفك نحوه ترني فقلت لها وأين فؤادي

ففؤاده ليس عنده، بل هو عندها، إذ ضاع منه، وهي التي تعرف مكانه، وماذا عليها لو ردتته إليه، وله من جملة أبيات:

بصورة الوثن استعبدتني وبها ففتنتني وقديماً هجّت لي شجنا
لا غرو أن أحرقت نار الهوى كبدي فالنار حقت على من يعبد الوثنا

والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف، إذ حاول أن يعلل لحرق نار الهوى لكبهه بأن صاحبه استعبدته بصورة الوثن، وكأنه عبد وثناً وحقت عليه النار، ولم يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو، فنار الهوى تحرق أكباد الشعراء من قديم، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفاً إذ يقول في غزله:

زكاة رءوس الناس في عيد فطرهم يقول رسول الله - صاع من البر
ورأسك أغلى قيمة فتصدّقي بفيك علينا فهو صاع من الدرّ

فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البر أو القمح في هذا العيد، ليصل إلى أن صاحبه ينبغي أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من البر وإنما بصاع من الدر، يريد ثغرها وما فيه من الأسنان. والصورة في غاية التكلف. وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر، وكأنها أخذ يعيي الشعراء أن يأتوا بصور طبيعية أو كأنها أحسوا أن أسلافهم استنفدوها، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة المبعدة في الغرابة من مثل قول الباخري أيضاً لبعض صواحيبه:

وأبكي لدرّ الثغر منك ولي أب فكيف يديم الضحك وهو يتيم

فهو يبكي لأنها لا تنيله شيئاً، ويعجب أن يبكي وله أب، بينما ثغرها يضحك، وهو يتيم. والتورية واضحة، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر، وهو يريد أنه منقطع النظر حسناً. والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الواضح.

شعراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة، حتى لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا ما يستتبعه من الخمر والمجون، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى الله والاستماع إلى الوعاظ في المساجد بنيسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة. وكان هؤلاء الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكانوا يسمون مجالس وعظهم مجالس التذكير، يذكرون الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان، موردن عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيماناً وتقوى وورعاً. وكانت العامة تشغف بهم، وتستدير حول مجالسهم منيعة إلى الله مغذية مشاعرهم وعواطفهم بما تسمعه من مواعظهم. وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ هـ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية^(١)، وطبيعي أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنسك، فهو الشعر الذي تهوى إليه أفئدة الشعب، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولي على ألباب سامعيه، وتلقانا في العصر مواعظ كثيرة، من مثل موعظة أبي الفرج الساوي حين توفي السلطان فخر الدولة البويهري، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله^(٢):

حَذَارِ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

فَقُولِي مَضْحَكٌ وَالْفَعْلُ مُبْكِي

أَخَذْتُ الْمَلِكَ مِنْهُ بِسَيْفٍ هُلْكَ

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلٍّ فِيهَا

فَلَا يَغْرُرْكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي

بِفَخْرِ الدَّوْلَةِ اعْتَبَرُوا فَإِنِّي

(١) انظر ترجمته في الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين للسيوطي وتتمه اليتيمة ١١٥/٢ والسبكي ٢٧١/٤.

(٢) اليتيمة ٣٩٣/٣.

وقد كان استطال على البرايا
فلو شمس الضحى جاءته يوماً
ونظّم جمعهم في سلك ملك
ولو زهر النجوم أبت رضاه
لقال لها عتوا: أف منك
فأمسى بعد ما قرع البرايا
تأبى أن يقول: رضيت عنك
أسير القبر في ضيق وحنك
وظني أنه لو عاد يوماً
إلى الدنيا سربل ثوب نسك

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغي عبرة وعظة، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبريائه وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهداً فيها مؤثراً أن يعيش عيشة النساك. وفي كتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان، كان يشغل نفسه حقبة بمديح الأعيان والوجهاء، ثم أثر الزهد والإعراض عن الدنيا، ويورد الثعالبي أطرافاً من شعره الزاهد^(١) من مثل قوله:

عبد عصى ربه ولكن
إن لم يكن فعله جميلاً
ليس سوى واحد يقول
فإنما ظن جميل

وهو يصور فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه، ويذكر الثعالبي أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ظل ينشد:

أتيتك راجلاً ووددت أني
ومالي لا أسير على المأقي
ملكّت سواد عيني أمتطيه
إلى قبر رسول الله فيه

ومن شعراء كتاب اليتيمة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذي يفوح بالتقوى أبو جعفر البحات الزوزني أحد القضاة بخراسان، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على

الملوك والحشم والجوش وربات الخدور والحسان، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه، يقول^(١):

سَبَّاحٌ حَوَالِيهِ زُرُقُ الْعَيُونِ كَلَّا وَأُسْدٌ وَذَنْبٌ أَزَلٌ^(٢)
فهذا يجاذب ما قد حواه وهذا يخالسه ما فصل
إذا وضعوه على نَعِيشِهِ أشاعوا البُكا وأسروا الجَذْلَ^(٣)
وإن دفنوه نَسُوهُ مَعًا وكلُّ بميراثِهِ مُشْتَغِلٌ

ويكي أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إلهي من وهن لعظم واشتعال الشيب في رأسه، ويتوب إلى ربه منياً مستغفراً. ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء في كتاب دمية القصر، وخاصة منهم القصاص الوعاظ، وكان طبيعياً أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدثين والفقهاء. وللزخشي ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام. وللغزالي بدوره أشعا زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله^(٤):

سَقَمِي فِي الْحَبِّ عَافِيَتِي ووجودي فِي الْهَوَى عَدَمِي
وعَذَابٌ يَرْتَضُونَ بِهِ فِي فَمِي أَحْلَى مِنَ النَّعْمِ
مَا لُضِرُّ فِي مُحِبَّتِكُمْ عِنْدَنَا وَاللَّهِ مِنْ أَلَمٍ

وللفخر الرازي المار ذكره أشعار زهدية طريفة، وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل، وله في جميعها مؤلفات كثيرة. وكان في الوعظ آية،

(١) البتيمة ٤/ ٤٤٥.

(٢) ذنب زل: ذنب يتولد بين الضبع والذئب.

(٣) الجذل: الفرح.

(٤) انظر ترجمة الغزالي في السبكي ٦/ ٢٢٢.

وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء، ويشتهر له قوله ^(١):

نهاية إقدام العقولِ عِقالٌ	وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضلالٌ
وأرواحنا في وَحْشَةٍ من جُسومنا	وحاصلُ دُنْيانا أذى ووبالٌ
ولم نَسْتَفِدْ من بَحْثنا طولَ عُمْرنا	سوى أن جَمَعنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شُرُفاتُها	رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالٌ

فكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال، وما الدنيا؟ إننا لا نجني منها سوى الأذى والوبال، وسوى العدم والفناء الذي يحيط بالناس جميعاً وبالذول مهما عظم سلطانها، فمآلها إلى زوال. ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعي القزويني الفقيه الشافعي المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوين لسماع الفقه والتفسير والحديث النبوي، ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالخط المقسوم وحمد الله في اليسر والعسر دائماً أبداً ^(٢):

إن كنتَ في اليُسْرِ فاحمِمْ مَنْ حَبَاكَ بِهِ	فليس حَقًّا قَضَى لَكِنَّهُ الجودُ
أو كنتَ في العُسْرِ فاحمِمْهُ كَذَلِكَ إِذْ	ما فَوْقَ ذَلِكَ مصروفٌ ومَرْدودُ
وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةٌ	وغيرَ مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول: "اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام: قوم يحسون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حباً لله تعالى، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى، وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة، وإن أتى البلاء على أنفسهم:

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٥٠ والسبكي ٨/ ٩٦.

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعي التالي السبكي ٨/ ٢٨٦ وما بعدها.

يَسْتَعَذِبُونَ بِلَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَيْئَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

تسرهم البلية كما تسرهم النعمة، وقوم يتركون الاختيار، ويوافقون الأقدار، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب". وفي ذكر الرافعي لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهد نزع صوفية. والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على شعراء اللسان العربي، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي، على شاكلة الشيخ سعدي الشيرازي، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله^(١):

يا نديمي قم بليلٍ	واسقني واسق الندامي
خلني أسهر لي	ودع الناس نياماً
في أوانٍ كشف الور	دع الوجه اللثاماً
قل لم عير أهل الـ	حب بالحب ولا ما
لا عرفت الحب هيهنا	ت ولا ذقت الغراماً

وهي خمرة صوفية طريفة. ومر بنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين: اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين، هما عبد الكريم القشيري ويحيى الشهروردي.

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة الحلبي) ١/ ٢٦٣.

عبد الكريم^(١) القشيري

ولد في قرية أستوا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق، فأعجب به وسلكه بين مريديه، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي، ثم اختلف إلى دروس ابن فورك حتى أتقن علم الأصول، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفرايني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني. وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري. وزوجه الدقاق ابنته حباً له، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد، وأخذ في التصنيف، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه "التيسير في علم التفسير" وهو - كما يقول ابن خلكان - من أجود التفاسير. وخرج إلى الحج في رفقة، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد بن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز. وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صوب. وذكره الخطيب البغدادي، فقال: "قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدث ببغداد وكتبنا عنه، وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة" ويقول الباخرزي واصفاً وعظه: "لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب".

وكان يعتنق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول. وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة، وهو - كما مر بنا في الفصل الأول - من أوائ من رأبوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة وذلك في رسالته

(١) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمعاني ٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ١١/ ٨٣ وابن خلكان ٣/ ٢٠٥ ودمية القصر والسبكي ٥/ ١٥٣ والمتنظم لابن الجوزي ٨/ ٢٨٠ وإنباه الرواة للقفطي ٢/ ١٩٣ وشذرات الذهب للعماد ٣/ ٣١٩ واللباب ٢/ ٢١٤ والنجوم الزاهرة ٥/ ٩١ وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبي ٣/ ٢٥٩.

المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني. ولا ريب في أنه له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزءاً لا يتجزأ من التصوف، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى النسك والمحبة الإلهية، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية. وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله:

وإذا سقيت من المحبة جرعةً ألقيت من فرط الخمار خماري

كم تبت قصداً ثم لاح عذاره فخلعت - من ذاك العذار - عذارى

والخمار بضم الخاء بقية السكر والخمار بكسر الخاء الحجاب. يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه. وإنه ليتوب ثم تراءى له شواهد، فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول:

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوةً فأني من ليلي لها غير دائئ

وأكثر شيء نلت من وصالها أمانى لم تصدق كخطفة بارق

فهو لا يسلو هواه ولا يكف عنه، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه، هوى لا يزال يتعثر في شبابه، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب. ويقول:

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم ونغر الهوى في روضة الأنس ضاحك

أقمنا زماناً والعيون قريرةً وأصبحت يوماً والجفون سوافك

وهو يتحدث عن الوصال الذي يذكه المتصوفة هذا الحديث الرمزي، فقد كان ينعم به زماناً أو قل كان يخيل إليه أنه ينعم به، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة، غير أنه أصبح يوماً، فإذا الوصال كان حلماً، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع، بكاء كله جزع، وكله لوعة وحسرة. وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله:

يا مَنْ تَقَاَصَرَ شُكْرِي عَنْ أَيْادِيهِ	وَكَلَّ كُلُّ لِسَانٍ عَنْ مَعَالِيهِ
وَجُودُهُ لَمْ يَزَلْ فَرْدًا بَلَا شَبِيهِ	عَلَا عَنْ الْوَقْتِ مَاضِيهِ وَآتِيهِ
لَا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ لَا قَهْرٌ يُلْحَقُهُ	لَا كَشْفٌ يُظْهِرُهُ لَا سِتْرٌ يُخْفِيهِ
لَا عَدٌّ يَجْمَعُهُ لَا ضِدٌّ يَمْنَعُهُ	لَا حَدٌّ يَقْطَعُهُ لَا قُطْرٌ يَحْوِيهِ
لَا كَوْنٌ يَحْصُرُهُ لَا عَوْنٌ يَنْصُرُهُ	وَلَيْسَ فِي الْوَهْمِ مَعْلُومٌ يُضَاهِيهِ
جَلَالُهُ أَزْلَى لَا زَوَالَ لَهُ	وَمُلْكُهُ دَائِمٌ لَا شَيْءٌ يُفْنِيهِ

والتبتل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية، وأنه فرد لا شبيه له، سما عن كل زمن ماض وحاضر، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه، وهو القاهر فوق عباده، موجود في كل زمان ومكان، دون انكشاف ودون حجاب، ودون حصر، ودون حد يطيف به أو مكان يحتويه، ليس كمثله شيء، أزلي لا زوال لجلاله ولا فناء لملكه. وهو تجريد قوي للذات العلية ينفصل به القشيري وأصحاب التصوف السني عن أصحاب التصوف الفلسفي وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية. ويقول:

جَنَّبَانِي الْمَجُونُ يَا صَاحِبِيَّ	وَاتْلُوا سُورَةَ الصَّلَاحِ عَلَيَّا
قَدْ أَجَبْنَا لَزَاجِرِ الْعَقْلِ طَوْعاً	وَتَرَكْنَا حَدِيثَ سَلَمِي وَمِيَّ
وَمَنْحَنَا لِمَوْجِبِ الشَّرْعِ نَشْراً	وَشَرَعْنَا لِمَوْجِبِ اللَّهِ طَيَّاً
وَوَجَدْنَا إِلَى الْقَنَاعَةِ بَاباً	فَوَضَعْنَا عَلَى الْمَطَامِعِ كَيَّاً

فتَعَوَّضْتُ بِالرِّضَا مِنْهُ فَيَا^(١)

كُنْتُ فِي حَرٍّ وَحَشْتِي لاختياري

فَعَلَى الصَّدِّ سَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا

والذين ارْتَوَوْا بِكَأْسٍ مِنْهُمْ

وهو يعلن في الأبيات سلوكه في الطريق، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً أو يشبه المجون، وقد لَبى عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه، فهو يعيش للشريعة المحمدية قانعاً، زاجراً مطامعه في متاح الحياة. ويتصور كأنه كان يقضي أيامه قبل تصوفه في فيافي وحشة شديدة الحرارة، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة، ظلال نهل فيها كئوس المنى، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرة أو يصد عنها، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد. وما زال القشيري غارقاً في هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ بَنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق.

يحيى^(٢) السهروردي

ولد يحيى بن حبش حوالي سنة ٥٤٥ للهجرة بسهرورد في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة. وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة. وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة. ومد تجواله وترحاله إلى ديار الشام. وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفي، فكان يجادل الفقهاء. واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد - كما يقول دارسوه - على غنوصية آسيوية، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفة: "حكمة الإشراق" وهو قسمان: قسم خص به

(١) فيا: ظلاً.

(٢) انظر في ترجمة يحيى السهروردي معجم الأدباء لياقوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٨٦/٦ وعيون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصبعية بينه وبين الشهاب عمر السهروردي المتصوف البغدادي السني، وانظر مرآة الجنان ٤٣٤/٣ ولسان الميزان ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ١١٤/٦ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمي على ترجمته فيها وفتاوى ابن تيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية في الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربي) ص ٤٤٠ وما بعدها.

المنطق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً، وقسم ثاني قصره على الأنوار الإلهية، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات. وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف، حتى يتعانق في داخله العقل والقلب أو الذوق. ولج السهروردي في نظرية النور وما يقابلها من الظمة، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور. وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية، ومن ثم كان يقول بوحدة الوجود وبالحلول الإلهي في الكون والكائنات. وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي المتغول في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء. وكان طبيعياً أن يكفره الفقهاء في "حلب" وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة. ولما تحقق القتل كان ينشد:

أرى قَدَمي أراقَ دَمي وهانَ دَمي فها نَدَمي

ولكنه ندم ولات حين مندم. ومن كلامه: حرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات، فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان، فأبى النظام أن يكون غير ما كان:

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعَتِي على الأكوانِ

والبيت يشير بقوة إلى فكري الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان أكثر من تردد قوله:

لو علمنا أننا ما نلتقي ما قضينا من سُلَيْمَى وَطَرَا

والسهروردي يشير في وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفي كثير من مثل قوله:

أقول لجارتي والدمعُ جارِي ولي عَزَمُ الرحيل عن الديارِ

ذريني أن أسيرَ ولا تنوحي فإن الشُّهْبَ أَشْرَفُها السَّواري

وإني في الظلام رأيت ضوءاً
وأيدي من الزوراء برق
كأن الليل بدل بالنهار
يذكرني بها قرب المزار
إذا أبصرت ذلك النور أفنى
فما أدري يميني من يساري

وهو يذكر في الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف، كما يذكر فكرة الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بآله وما أنعم عليه - كما يتصور - بنعمة الوصال، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره، وله حائية رائعة يستهلها بقوله:

أبدأ تحن إليكم الأرواح
ووصلكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
وإلى لذيذ لقائكم تراح
وارحمنا للعاشقين تكلفوا
ستر المحبة والهوى فضح

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تتمنى وصلها لتجد فيهر يحنها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة، وإن القلوب لتحن إليها دائماً مشتاقة مولعة شاعرة بنعيم ما بعده نعيم، ويأسي لعاشقي الذات الإلهية، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم ولا كتمانهم، لدموعهم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكاباً، ويتضرع إلى المحبوب قائلاً:

عودوا بنور الوصل من غسق الجفا
صافاهم فصفو له فقلوبهم
فاهجر ليلاً والوصل صباح
في نورها المشكاة والمصباح
وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم
راق الشراب ودارت الأقداح

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام داغ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ

لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وكأن في قلوب الصوفية نور الله، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية، وهو اتعاد يعني السكر والنعيم بنشوة هذا الخمر الربانية التي راقى وأخذت كثوسها وأقداحها تدور على المحبين كما يقول، أقداح من شرابٍ رُوحِيٍّ مصفى، ويقول مصوراً لهم في حال سكرهم:

لا يَطْرَبُونَ بِغَيْرِ ذِكْرِ حَبِيبِهِمْ أبداً فكلُّ زمانهم أفرأح
حَضَرُوا وقد غابت شواهد ذاتهم فتَهَتَّكُوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كُشِفَتْ لهم حجبُ البقا فتلاشت الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم، وهم حاضرون غائبون، وكأنما يفنون عن ذاتهم وأجسادهم بل هم فانون فعلاً، لا يدركون حساً منهم ولا ما يشبه الحس، إذ أصبحوا في الحضرة الإلهية، وأصبحوا لا يحسون ولا يبصرون سواها، وإنهم ليصيحون ويعلوا صياحهم فرحاً وابتهاجاً بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله، وبما كشف عنهم من الحجب والأستار. وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان ينكرها - كما قدمنا - أصحاب التصوف السني، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحاداً، ولا يدعون غيبة وهم حضور، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري آنفاً لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد، ليس كمثله شيء، ولا كم له ولا كيف (لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وليحيى السهروردي قصيدة في النفس حاكي فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها النفس سابقة للجسد، وهي تحل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثالي الأول، وفي ذلك يقول السهروردي:

خَلَعَتْ هياكلها بِجَرِّ عَاءِ الْحَمَى وَصَبَّتْ لَمَغْنَاهَا الْقَدِيمَ تَشَوُّقاً

فهي تشاق عالمها القديم، ولذلك تفارق الجسد الذي حلت فيه راضية مرضية، ولعل في هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردي بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلاً عن صلته بالفلسفة عامة.

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، ونجدها متراصة في مطولة زهير وكانت تجري على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعراً، ليتنفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم، وتظل ماثلة في الشعر العربي طوال العصر الإسلامي، وتكثر في العصر العباسي وتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التي عرفها العرب والتي نقلت عنها لهم الحكم والأمثال. ومربنا في كتاب العصر العباسي الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليله ودمنة وما فيه من أمثال وحكم في نحو أربعة عشر ألف بيت، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال، وكلها حكم، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت، وروى أبو الفرج في ترجمته بكتابه الأغاني منها قطعة طويلة، وأكبر الظن أن كثيراً من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسي التي ترجمها ابن المقفع وغيره، وفي شعر أبي نواس بعض أمثال فرسية نص عليه القدماء. وقد مضى شعراء العصرين العباسي الأول والعباسي الثاني يسلكون في أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية، حتى إذا كنا في هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيراً من الأمثال المعروفة في لغتهم إلى أشعارهم العربية، بل لقد تصدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية، هي ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبي عبد الله الضرير الأبيوردي، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله^(١):

صِيَامِي إِذَا أَفْطَرْتُ بِالسُّحْتِ ضَلَّةٌ وَعَلِمِي إِذَا لَمْ يُجِدْ ضَرْبٌ مِنَ الْجَهْلِ^(٢)
وَتَزَكِّيْتِي مَا لَا جَمْعُ مِنَ الرَّبَا رِيَاءٌ وَبَعْضُ الْجُودِ أَخْرَى مِنَ الْبُخْلِ

(١) البيتية ٩٠ / ٤.

(٢) السحت: الكسب الحرام.

كسارقة الرُّمَّان من كَرَم جارها تعود به المرَضَى وتطمع في الفضل
ألا رَبَّ ذَنْبٍ مَرَّ بالقوم خاوياً فقالوا علاه البُهر من كثرة الأكل^(١)

وكان الشعراء يضمنون قصائدهم وأشعارهم كثيراً من الحكم، ومن خير من يمثل ذلك الطغرائي في لاميته المسماة لامية العجم، وهي تغص بالحكم والأمثال منذ مطالعها، ونكتفي بسرّد طائفة من طرائفها على هذا النمط:

حُبُّ السلامة يَثْنِ هَمَّ صاحبه عن المعالي ويُغري المرء بالكسل
أعْلَلِ النفس بالآمال أَرْقُبها ما أضيق العَيْشَ لولا فَسْحَةُ الأمل
تَقَدَّمْتَنِي أناسٌ كان شَوْطُهُمْ وراءَ خَطْوِي إِذْ أمشي على مَهَلٍ
وإن عَلَانِي مَنْ دُونِي فلا عَجَبٌ لي أسوةً بانحطاط الشمس عن زَحَلٍ
أَعْدَى عدوك أَدْنَى مَنْ وثقت به فحاذرِ الناسَ واصحبهم على دَخَلٍ^(٢)
وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يَعُولُ في الدنيا على رَجَلٍ

وأكبر الظن أن الطغرائي لم ينقل شيئاً من هذه الحكم عن الفرس إنما هي ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله.

ونمت الفلسفة في هذا العصر نمواً واسعاً، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مر بنا في الفصل الثاني، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تتشع بشيء من تفلسفه قليلاً أو كثيراً وأثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية في الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية، وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن الفس، وهي تصورها في عالمها العلوي الذي كانت تحيى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يتخلق في الرحم، وفي عالمها السفلي حين تم هذا الاتصال بالجسد. وهو اتصال تقدم عليه وهي كارهة،

(١) البهر: تتابع النفس.

(٢) دخل: خبت ومكر.

وتظل في أثنائه متشوقة إلى عالمها العلوي، مع ما حدث لها فيه من ألفة، ولذلك تنفصل عنه
كارهة كما اتصلت به كارهة، يقول^(١):

هبطت إليك من المحلّ الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مُقلّة ناظر	وهي التي سَفَرَتْ فلم تتبرقع
وصلت على كُرّه إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهداً بالحِمَى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها	من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت	بين المعالم والطلول الخضع

والورقاء: الحمامة كني بها عن النفس. وهو يصورها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع،
عالم العقود المجردة أو العقول الكلية، الذي يجد فيه سعادتها وكمالها، ولذلك هي تهبط منه
شاعرة بغير قليل من العزة والشرف، محبوبة عن كل حس، ومع ذلك تسفر للعقول
فتدركها دون أن تبصرها، وتنزل في البدن كارهة لأنه ليس من جنسها، غير أنها تأنس له
مع الأيام، حتى إذا فارقت توجعت له وتفجعت عليه، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر،
وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوي لأنسها لهذا الجسد الفاني الذي هبطت إليه من
مركزها الرفيع وعشقتها، عشقت مشخصاته الأرضية التي عبر عنها بالثقل وبذات
الأجرع، وغدت تحن إلى دياره ومعالمه وطلوله حين الشعراء لمعشوقاتهم، ويمضي قائلاً:

تبكي وقد نسيت عهداً بالحِمَى	بمدامع تهمي ولما تقلع
وتظل ساجدة على الدمن التي	درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحِمَى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

(١) انظر العينية في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن بابن خلكان ٢/ ١٦٠.

عنها حَلِيفِ التُّرْبِ غَيْرِ مَشِيعٍ

وغدت مفارقةً لكلِّ مَخْلَفٍ

ما ليس يَدْرِكُ بالعيون الهُجَعِ

هَجَعَتْ وقد كُشِفَ الغطاء وأبصرت

والعلمُ يرفع كلَّ مَنْ لم يَرْفَعِ

وغدت تغرّد فوق ذِرْوَةِ شاهِقٍ

فهي تحن إلى عهودها القديمة وتبكي بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التي توشك على الفساد والانحلال، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى، بل حتى فارقه فعلاً، فارقت البدن الفاني، عادت إليها سكيتها واستراحت، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التي ألم بها النوم، وغدت تغرد فرحة، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء، العلم الكلي الشامل الذي كانت قد نسيت في سكنها البدن، ويستمر سائلاً متحيراً:

سامٍ إلى قَعْرِ الحُضِيضِ الأَوْضَعِ

فلأَيِّ شَيْءٍ أَهْبَطْتُ من شاهِقٍ

طُوِيَتْ عن الفَظَنِ اللَّيْبِ اللُّوْذَعِي

إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ

قَفَصَ عن الأَوْجِ الفَسِيحِ الأَرْبَعِ

إذ عاقها الشَّرْكُ الكثيفُ فصدها

لتكون سامعةً لما لم تسمع

فهبوطها - لا شك - ضربةٌ لازِبٍ

في العالمين فَخَرَفُها لم يَرْفَعِ

وتعود عالمةً بكلِّ خَفِيَّةٍ

حتى لقد غرِبَتْ بغيرِ المَطْلَعِ

وهي التي قَطَعَ الزمانُ طَريقَها

ثم انطَوَى فكأنه لم يَلْمَعْ

فكأنها بَرَقَتْ تَأَلَّقَ بِالْحَمَى

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوي إلى العالم السفلي ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت؟ ويجب إن كان في ذلك حكمة لله جل شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضي وتقف على أسرارها، بجانب ما كانت تعلم من العالم العلوي، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوي. عادت وقد تمت رحلتها في الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى

إليه هذا الشروق من غروب، وكأنها في هذه الرحلة القصيرة برق لمع، ثم طوته السحب طياً. وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها، متصلة في الحالين بالعقل الكلي إلا ما كان من رحلتها القصيرة في الأرض وخلال البدن، ومع ذلك فهي في هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ما تضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوي. وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد. ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال، كان أحدهما يعني بنقلها عن الفارسية وكان الثاني يعني بوضعها ونظمها في أشعاره، وهما أبو الفضل السكري المروزي وأبو الفتح البستي.

أبو الفضل^(١) السكري المروزي^س

هو أحمد بن محمد بن زيد، يقول فيه الثعالبي: "شاعر مرو وظريفها، وله شعر مليخ خفيف الروح كثير الملح والأمثال" ويورد بعض أشعاره، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذي خص به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمي لوفرة ألحانه وأنغامه، حتى يتلافوا ما في هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر، وظل ذلك ثابتاً طوال العصور التالية إلا ما ندر. فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول في الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت، مع الاحتفاظ بها في كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر في واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة، فهي تتألف من شطرين شطرين، وكل شطرين يتحدان في قافيتها. ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبي الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس، ويورد منها ثلاثة عشر بيتاً من مثل قوله:

الثوبُ رهنٌ في يدِ القَصَّارِ^(٢)

من مُثلِ الفُرسِ ذوى الأبصارِ

(١) انظر في ترجمة أبي الفضل السكري اليتيمة ٨٧/٤ وما بعدها.

(٢) القصار: صابغ الثياب.

نال الحمار بالسقوط في الوَحْل
ما كان يَهْوَى ونجا من العمل
والعنز لا يَسْمَنُ إلا بالعَلَفِ
لا يَسْمَنُ العنز بقول ذي لَطَفٍ^(١)
البحر غَمَرُ الماء في العيان
والكلب يَرَوَى منه باللسان^(٢)
من لم يكن في بيته طعام
فماله في محفل مقام
كان يقال: من أتى خَوَانا
من غير أن يُدْعَى إليه هانا^(٣)

ويعلق الثعالبى بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله: "وكان أبو الفضل السكري مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية" وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة، من ذلك قوله:

إذا لم تُطِقْ أن تَرْتَقِي ذِرْوَةَ الجبل
لعجز فقِفْ في سفحه هكذا المثل
وقوله:

في كل مستحسن عَيْبٌ بلا رَيْبٍ
ما يَسْلَمُ الذهب الإبريز من عَيْبٍ
وقوله:

ادْعَى الثعلبُ شيئاً وطلبَ
قِيلَ هل من شاهدٍ؟ قال: الذنبُ
وقوله:

تَبَخَّرَ إخفاءً لما فيه من عَرَجٍ
وليس له فيما تكلفه فَرَجٌ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان في عصور طويلة، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل، وهي لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية، لأنها تتداول على ألسنة الشعب، وكأنها

(١) لطف: رفق.

(٢) الماء الغمر: الكثير العميق.

(٣) الخوان: مائدة الطعام.

عملات لغوية عامة، كل يستخدمها، وكل يلفظ بها عند مناسبتها، وكأنها يلقي بها الكلمة التي لا ترد، ولذلك سميت حكمة، فهي حكمة الشعوب وخبرتها مركزة في قطرات أو كلمات.

أبو الفتح^(١) البستي

هو علي بن محمد، ويعد من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه، وكان يحسن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بست مكانته، فاتخذته كاتباً له، حتى إذا فتح بلدته الأمير سبكتكين قربه منه وقلده الكتابة في ديوانه، وحل عنده محل الثقة الأين في مهمات شئونه. ونعم بجواره، واشتهر بما صور في كتبه وأشعاره من فتوحه، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوي، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخاري وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزلي العقيدة.

ويعرف به الثعالبي فيقول: "صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه ويأتي فيه بكل طريفة لطيفة". ولم يكن يستخدم الجناس استخداماً واسعاً في أشعاره فحسب، بل كان أيضاً يستخدمه في كتاباته ونثره. ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله، يدل بها على قدرته في التجنيس البديع الصيغة، فمن ذلك قوله:

"مَنْ أصلح فاسده، أرغم حاسده. مَنْ أطاع غضبه، أضاع أدبه. عادات السادات، سادات العادات. مِنْ سعادة جَدِّك، وقوفك عند حَدِّك. الخيبة، تهتك الهيبة. الدَّعة، رائدة الضَّعة. أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُدْلاً، وعلى السلطان مُدْلاً. إذا بقى ما قاتك، فلا

(١) انظر في ترجمة أبي الفتح البستي وشعره اليتيمة ٣٠٢/٤ وما بعدها والمنتظم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء للبيهقي: ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٣/٥ وابن خلكان ٣٧٦/٣ وشذرات الذهب ١٥٩/٣ وعبر الذهبي ٧٥/٣ والأنساب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ وديوانه مطبوع.

تأس على ما فاتك. المنيّة، تضحك من الأُمْنِيّة. حَدُّ العَفاف، الرضا بالكفاف. ظِلُّ الجفاء، يَكْشف شمس الصفاء".

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئاً بملحه في الغزل والخمر، وهي ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس، وكأنها أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صع أشعاره، على نحو ما نجد في قوله متغزلاً:

وغزال كل من شبهه بهلال أو ببدر ظلّمه
قال إذ قبلت بالوهم فمه قد تعدّيت وأسرفت فمه

ومّه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعني اكفف. وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناساً تاماً بينها ومعها الفاء وبين كلمه "فمه" في آخر الشطر الأول. وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه:

أوان أنت في هذا الأوان عن الرّاح المروّق في الأواني

فقد جناس بين "وان" في أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة "الأوان" في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان، ثم بينها وبين كلمة "الأواني" في آخر البيت جمعاً لإناء. وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائحه كقوله في مديح كاتب وكتابته:

لم تر عيني مثله كاتباً لكل شيء شاء وشاء
يبدع في الكتب وفي غيرها بدائعاً إن شاء وإنشاء

والجناس الناقص واضح بين "شيء" و"شاء" و"و" و"شاء" أو منمق، وأتى بجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي "إن شاء" و"إنشاء". ويعترف بأنه سمع وهو صبي شاعراً من موطنه "بست" يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته^(١). وكان هو نفسه

(١) اليتيمة ٣٣٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك.

عاملاً مهماً في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه ^(١) وبعد زمنه. وعني غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعي الذي مر بنا ذكره. وكان أبو الفتح يتصنع كثيراً في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظهِراً مصطلح اللازم والمتعدي:

طالباً مالا ورُفداً

قال لي لما رأني

لازم لا يتعدى

إن مالي يا حبيبي

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع في زمنه، ومما لا شك فيه أن البستي كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية. على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبي الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجنس بصورة التامة والناقصة، فقد كان ينفذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه، وكان يدعي سعة الفكر والمنطق العميق:

وذاك في التحقيق أعمى له

يبنى على الفكرة أعماله

تريه في الخلوة أفعاله

فقيض الرحمن أفعى له

وواضح جناسه التام بين "أعماله" و"أعمى له" في البيت الأول، وبين "أفعى له" و"أفعاله" في البيت الثاني. ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة، ومن أروع ما له في هذا الجانب نونيته، وهي طويلة، وفيها يقول:

وربحه غير محض الخير خسران

زيادة المرء في دنياه نقصان

بالله هل لخراب العمر عمران

يا عامراً لخراب الدار مجتهداً

أقصر فإن سرور المال أحزان

ويا حريصاً على الأموال يجمعها

فطالما استعبد الإنسان إحسان

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مَعُونًا لَّذِي أَمَلَ
يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنْ الْحَرْ مَعُونٌ
وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مَعْتَصِمًا
فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً
إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَانٌ
وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَاتَتْهُ دَوْلَتُهُ
وَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتْهُ أَعْوَانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت في العالم العربي، وأخذت الأجيال العربية ترددها في كل بلد، حتى لتصبح قصيدة شعبية، ينشدها الناس في كل مكان، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة. ولعل في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في "بُسْت" بأفغانستان الحالية تنشد في قلب العالم العربي بالقاهرة، ويحفظها الشباب ويستظهرونها في المغرب كما يستظهرونها في المشرق. ويعقد الثعالبي فصلاً طويلاً لحكم البستي، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه، ومن طرائفه الحكمية قوله:

لَا تَحْقِرِ الْمَرْءَ إِنْ رَأَيْتَ بِهِ
دِمَامَةً أَوْ رِثَاةَ الْخُلِّ
فَالنَّحْلُ شَيْءٌ عَلَى ضَوْوَلَتِهِ
يَشْتَارُ مِنْهُ الْفَتَى جَنَّا الْعَسَلِ^(١)

وقوله:

لَا يَسْتَخْفَنَّ الْفَتَى بَعْدُوهُ
أَبَدًا وَإِنْ كَانَ الْعَدُوُّ ضَيْلًا
إِنَّ الْقَذَى يُؤْذِي الْعَيُونَ قَلِيلُهُ
وَلَرُبَّمَا جَرَحَ الْبَعُوضُ الْفِيلًا

وقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ طَوَّلَ حَيَاتِهِ
مُعَنَّ بَأْمَرٍ لَا يَزَالُ يَعَاجِلُهُ
يَدُورُ كدُودِ الْقَرِّ يَنْسِجُ دَائِمًا
وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطًا مَا هُوَ نَاسِجُهُ

(١) يشتار: يجتني.

وعلى هذا النحو لا نزال نقرأ عند أبي الفتح البستي حكماً طريفة. مما يدل على بعد نظره واتساع خبرته. وكان يخليها من الجناس عادة، حتى تخف على ألسنة الناس وتدور في أفواههم، ومن الحق أنه كان شاعراً خصب القريحة، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ بديعة.

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه، إذ كان دائماً ترجماناً عن عواطفها ومشاعرها، حتى في المديح، فإن الشعراء كانوا يمدحون الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم، ولم يتركوا لهم عملاً قدموه لشعوبهم دون أن يحمدهم لهم حمداً كثير، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها. وكثرة الشعراء كانت من عامة الشعوب العربية، فكان طبيعياً أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل ما يجري في خواطرها. وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها. وكانت تعيش كادحة كدحاً مريراً، لكي تثرى وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين. ولم يكن أمام هذه الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطياتها، وهي لذلك تقبل على شعر الزهد، ويصبح هذا الشعر غذاءها. لا شك في أن شعبية هذا الشعر هي التي جعلته يسهل في لغته سهولة شديدة، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوي، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة الخفيفة التي تفهمها بمجرد أن تقرر أسماعها. وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبياً في لغته الشعرية، وكان مما أكد شعبيته ذبوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقصاص والفقهاء وأصحاب الحديث، فكان الناس يسمعون في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا يسمعون منه على ألسنة الشعراء، وحتى شعر المجون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب ونقص أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق في بعض منه آثار الشعبية، غير أنها هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقترن به أحياناً من دعابة، مما يجعله أقرب إلى النواذر المضحكة، وتأتي أيضاً من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية التي تشيع على ألسنة العامة، ويلقانا منهم كثيرون في اليتيمة وتتمتها وفي دمية القصر والخريدة. وطبيعي أن يشيع شعر شعبي كثير على ألسنة الشيعية، يرويه خالف لهم

عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية، مما تزخر به كتب الطبقات.

ونجد في اليتيمة شاعراً من الأهواز يسمى محمد^(١) بن عبد العزيز السوسي، يقول فيه الثعالبي إنه كان أحد شياطين الإنس، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرَبَّى على أربعمئة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات، أولها:

الحمد لله ليس لي بخت ولا ثياب يضمها تحت^(٢)

سيان بيتي لمن تأمله والمهمة الصحصحان والمرت^(٣)

أمنت في بيتي اللصوص فما للصر فيه فوق ولا تحت

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صوان، فكل ما يملكه فوق جلده، وبيته فارغ من الأثاث ومن أي شيء يكون في البيوت عادة، وكأنه فلاة مقفرة، وطبيعي أن يأمن اللصوص، فليس في بيته ما يسرقونه، وكأنه سجن ولا حرس له. ويمضي فيما رواه الثعالبي من القصيدة، فيذكر أنه اضطر إلى أن يتخذ مظهر متسولة الصوفية فقصر ثيابه، وأحفى شاربه مستقصياً، وحمل سجادة، وذهب إلى الحج دون أن ينويه، ودخل المسجد الحرام وصلى في مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفي حقاً، حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه. والقصيدة كانت كلها هزلاً على هذا النمط.

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكدية أو التسول الأدبي، ويعرفون أيضاً باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك، فهام على وجهه محترفاً للكدية، وتشبه هذه الجماعة طائفة الأدبائية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازها. ونجد مقدمات هذه

(١) اليتيمة ٤٢٦/٣.

(٢) التخت: الصوان.

(٣) المهمة: الفلاة، الصحصحان: المستوى الواسع، المرت: الفقر لانيات فيه.

الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حيلها وخدعها، ويتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوئ ألواناً من هذه الخدع والحيل. وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر: أبي دلف الخزرجي.

أبو دلف الخزرجي: مسعر بن مهلهل^(١)

شيخ هذه الجماعة بإيران في العصر ومقدمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية في عودتها إلى الصين، وفي عودته طاف بالهند. وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهى كما يوضح ذلك الثعالبي ونراه يعقد له ترجمة طويلة في اليتيمة، ويعرف به على هذا النحو: "شاعر كثير الملح والطرف، مشحوذ المديّة في الكُدِيّة، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، في خدمة العلوم والآداب.. وكان ينتاب حضرة الصاحب (بن عباد) ويكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته، ويرتفق بخدمته، ويرتزق في جملته، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاية برعايته) في أسفاره فتجري مجرى السفاتج (الحوالات المالية) في قضاء أوطاره. وكان الصاحب يحفظ مناكة (كلام ومصطلحات) بني ساسان حفظاً عجيلاً، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، ومن قول أبي دلف:

وَيَحْكُ هذا الزمان زورُ
فلا يَغِرَّنكَ الغرورُ^(٢)
زَوْقٌ وَمَحْرَقٌ وَكُلٌّ وَأَطْبَقُ
واسِرِقٌ وَطَلْبِقٌ لمن يزور
لا تلتزم حالةً ولكنْ
دُرٌّ بالليالي كما تدورُ

(١) انظر أبا دلف في اليتيمة ٣/ ٣٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١/ ١٨٨ وفي دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبي دلف نشر مينورسكي بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسي (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) الغرور: كل ما غر الإنسان من شيطان أو حاه أو مال أو متاع.

والأبيات تصور حياة أبي دلف وأنها تقوم على المخارقة والتحامق والخطف والسلب والنهب. وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية، أو هكذا أسماها النعالي، وهي في ذكر المكدين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم، استهلها بالتعريف ببني ساسان الأدبائية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعسر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات، ثم يقول:

س في البرّ وفي البَحْرِ	فنحن الناس كلّ النّا
من الصّين إلى مِصرٍ	أخذنا جِزِيَةَ الخلقِ
لّ أرضٍ خيلُنّا تسري	إلى طَنَجَةٍ بل في كـ
نزل عنه إلى قُطرٍ	إذا ضاق بنا قُطرٌ
من الإسلام والكُفر	لنا الدنيا بما فيها
ونشتو بلد التّمَرِ	فنصطافُ على الثّلجِ

وطريف أن يعد أبو دلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاصيلهم وخدعهم وحيلهم الأدبية جزية. ويصور الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها داراً لهم من الصين على المحيط الهادي إلى طنجة والمحيط الأطلسي، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم، يصطافون في أقاليمها الباردة، ويشوت في أقاليمها الحارة الدافئة. ثم يأخذ أبو دلف في وصف حيلهم وصفاً مسهباً، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويز وأحراز، وكيف أن القاص منهم كان يتفق مع صاحب له، ليفد على مجلس قصصه، فيأمر السامعين بإعطائه ما يجودون به، ثم إذا تفرقوا عنه تقاسموا ما أعطوه. ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعاً للناس، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم رداهمهم وكيف أنهم حين يلمون بحوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرّة أو تينة من هناك، وكيف يدهنون وجوههم بماء البيض الأصفر، لتبدو شديدة الصفرة، وكيف يعصبون جباههم ليوهموا الناس أنهم مرضى، وكيف يعقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس، وكيف يطلون

أجسادهم بالزيت حتى تسود جلودهم، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم، محاولين أن يبتزوا منهم الثياب والسلاح للغزو، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دون الجبن بين أسنانهم ثم استخراجه، وكيف يروون للناس كذباً الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالاً، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم، وكيف يخفون إحدى أيديهم إيهاماً بأنها مقطوعة، وكيف يخيلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا، وكيف يوهمونهم بأنهم عمي لا يبصرون، وكيف يدورون بين العشائين منادين: رحم الله من عشي الغريب الجائع، آخذين من كل دار كسرة، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم، وكيف يحتالون على الشيعة خاضعين لحاهم بالخناء مع حملهم الألواح والسبح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين، مع نواحيهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة في الزيت وإمرارها على عيونهم، وكيف يستأجرون الصبيان والنساء ويكدون أو يشحذون عليهم، وكيف يطرحون على أبواب الخوانيت السباحات وأقراص الحلوى، وكيف يرقون المجانين وأصحاب العاهات، وكيف يموهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجون عن الناس، وكيف يعبرون للناس رؤاهم، وكيف يستأجرون الصبيان، وكيف يحملون السلال فيها الحيات وقد قلعوا أنيابها، وكيف يدعون الطب ومداواة المرضى، وكيف يشحذون أو يكدون على الدببة والسباع والقردة، وكيف يرعدون رعدات شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطك أسنانهم، وكيف أنهم يشدون أيديهم مجموعة الأصابع حتى يظن أنها مقطوعة، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى يظن أنهم من الصوفية. وما يزال أبو دلف في وصف خدع القوم وحيلهم، حتى يوفي على نهاية القصيدة قائلاً:

رَ من شَطْرٍ إلى شَطْرٍ

تُ في التَّطَوَّافِ كالخَضِرِ

ألا إني حَلَبْتُ الدَّهْ

وَجَبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صر

فَإِنْ أَظْفَرَ بِأَمَالِي	تَشَفَّتْ غَلَّةُ الصَّدْرِ
وَأَلَمْتُ بِأَوْطَانِي	قَوِيَّ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
وَقَدْ تَخَفَّقَ فَوْقِي عَدُوٌّ	زَرَّةُ أَلْوِيَةِ النَّصْرِ
وَأَمَّا تَكُنِ الْأُخْرَى	وَعِزُّ جَائِزِ الْكُسْرِ
فَلَا أُبْتُ مَعَ السَّفَرِ	غَدَاً فِي أَوْبَةِ السَّفَرِ
وَلَا عُدْتُ مَتَى عُدْتُ	بَلَا عِزٍّ وَلَا وَفَرٍ

ويقول إن له أسوة في غربته بالسادة الطهر آل البيت كما تشهد قبورهم في الكوفة وكربلاء وبغداد وسامرا وطوس وباخرا بالقرب من الكوفة. وفي ذلك ما يدل على أنه كان شيعياً، وأكبر الظن أنه كان إمامياً مثل صاحب بن عباد. وقد صور في قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدماً مصطلحاتهم في هذه الحيل، مما جعله يُعْنَى بشرح القصيدة بيتاً بيتاً، وعنه نقل الثعالبي الشرح، ولخصناه في إيجاز. والمصطلحات كلها شعبية، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شعبية، ولا شك في أن أبا دلف يعد خير شاعر في عصره عبر عن نفسه وعن هذه الجماعة.

ولأبي دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دون اقتباسات كثيرة منها ياقوت في "معجم البلدان" والقزويني في كتابه "آثار البلاد" ووجدت له رسالتان حلل أولاهما المستشرق الألماني رور صوير موضحاً أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين، ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكي (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان روسيان وعني الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه في نشرتها والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة، تذلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارئ. وفيها يصف أبو دلف رحلته في أواسط آسيا من جنوبي أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمذان فالري فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور، فهراة، فأصفهان، فمدن خوزستان. ويعني بوصف المدن والقلاع التي شاهدها وصفاً دقيقاً ذاكراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة.

الفصل الخامس

النشر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النشر العربي حتى وعى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة. ونحن لا نصل إلى هذا العصر: عصر الدول والإمارات، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضوع. وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النشر: نوع علمي ونوع فلسفي، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم، كما أسلفنا، وكل ذلك أحدثه بدون ضجة. ولم يتركوا علماً دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي وما يبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلاً^(١):

"يأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتمجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأنيته، معانٍ له بالقريحة الثاقبة، والروية الصافية، مقترن به التأييد والتسديد، قد شمر ذيله، وأسهر ليله، حليف النصب، ضجيع التعب، يأخذ مأخذه متدرجاً، ويتلقاه متطرفاً، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام، ومع هجران عادة الشر، والنزوع عن نزاع الطبع، ومجانبة الإلف، ونبذ المماحكة واللجاجة، وإجالة الرأي عند غموض الحق، والتأني بلطيف المأتى، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح، والتفريق بين التمويه والتحقيق، والوقوف عند مبلغ العقول، فعند ذلك إصابة المراد، ومصادفة المرتاد".

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسي ٤/١.

وبهذا العناية البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلاً رائعاً، وكان لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنشر، مما نراه واضحاً لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب، بل أيضاً في الكتابات الأدبية، ولناخذ جانباً واحداً هو جانب القصص، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفي وقصص فلسفي. ومعروف أن المترجمين عنوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسي والهندي وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة. ومحاكاة له ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً قصصياً مماثلاً يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتاباً^(١)، وكانت العامة تتلف منها ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن. وطبيعي أن تكثر كتب النوادر، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين، وتكثر أيضاً كتب الندماء وأخبارهم.

ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه أخذت تتكون منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة، تصور جهادهم في نسكهم جهاداً مضيئاً، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم. وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبي وألفاظه ولغته^(٢). وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة، لما كانت تلقى من رواج عند العامة، ويكفي أن نعرض أطرافاً من هذه الحكايات عند القشيري مؤسس التصوف السني، فقد فتح في رسالته باباً لكرامات الأولياء، وقص حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام. ومما حكاه أنه كان في قصر سهل التستري المتصوف بيت يسمى بيت السباع، يقول: فسألنا عن ذلك؟ فقالوا كانت السباع تجيء إلى سهل، وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللحم ثم يخليهم! وحكى

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٠.

(٢) انظر العصر العباسي الثاني (طبع دار المعارف) ص ٢٥٩.

عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التستري صومعته، فوجد فيها سفظاً (وعاء) فيه قارورتان، في واحدة منهما شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أبيض، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة، فرمى بالشوشقتين في دجلة، وخلط ما في القارورتين بالتراب! وكان على إسحق دين، قال بان سالم: قلت لسهل إيش كان في القارورتين، قال: إحدهما لو طرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس صارت ذهباً، والأخرى لو طرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة. فقال سامع لابن سالم: وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له: إي دوس (يا صاحبي) خاف على إيمانه. وحكى عن الخواص أنه قال: كنت في البادية مرة، فسرت في وسط النهار، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء، فنزلت، فإذا أنا بسبع عظيم أقبال، فاستسلمت، فلما قرب مني، إذا هو يعرج، فحمحم وبرك بين يدي، ووضع يده في حجري، فنظرت، فإذا يده منتفخة، فيها قيح ودم، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح، وشددت على يده خرقة، ومضى، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يصبصان لي وحملًا إلي رغيفاً!. وحكى عن ذي النون في رواية أبي بكر بن عبد الرحمن قال: كنا مع ذي النون المصري في البادية، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان، فقلنا: ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب، فتبسم ذو النون، وقال: أتشتهون الرطب، وحرك الشجرة، وقال: أقسمت عليك بالذي ابتدأك وخلقت شجرة إلا نثرت علينا رطباً جنياً، ثم حركها، فنثرت رطباً جنياً، فأكلنا وشبعنا. ثم نمنا، وانتبهنا وحركنا الشجرة، فنثرت علينا شوكة!. ومما حكاه عن الخضر في رواية أبي عمران الواسطي قال: انكسرت السفينة، وبقيت أنا وامرأتي على لوح وقد ولدت في تل الحالة صبية، فصاحت بي، وقالت لي: يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، ورفعت رأسي، فإذا رجل في الهواء ومعه كوز، فأخذت الكوز وشربنا منه، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، فقلت: من أنت؟ رحمك الله، فقال: عبد لمولاك، فقلت: بم وصلت إلى هذا؟ فقال: تركت عواري الدنيا لمرضاته، فأجلسني في الهواء، ثم غاب عني ولم أره.

وتكثر أمثال هذه الحكايات في كتب المتصوفة، وواضح ما فيها من إبطال قانون النسبية، وإنما روينها لندل على ذبوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة، وكانت تروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحي قريبة من أفهام العامة، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع في أوساطهم وتنتشر، عاملة - إلى حد - في الإبقاء على الفصحى، لغة متداولة على ألسنة الإيرانيين في ذلك العصر، خاصة أنهم كانوا يشغفون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص، لا تتناول الكرامات فحسب، بل أيضاً تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا الحور العين. وفي رسالة القشيري من ذلك حكايات مختلفة، وبالمثل في كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبي الليث السمرقندي المطبوع على هامش الروض الفائق في المواعظ والرفائق.

ويلقانا بجانب القصص الصوفي قصص فلسفي رمزي عند ابن سينا ويحيى السهروردي، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص، هي حي بن يقظان وسلامان وأبسال، ورسالة الطير. وتستهل أقصوصة حية بن يقظان بأن رفقاء (هي شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتنزهون، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخاً بهياً هو حي بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال. ويدور حوار بين حي بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التي توقع الإنسان في الشر، وأن الإنسان تحفه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القدرة ولا نجاة منها إلا بالموت، مثلها في ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز، وأن على الإنسان أن يجمعها بالمجاهدة. ويقول حي بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة، حد يحوزه الخافقان، ويقصد به المركبات المحسوسة، وحد المغرب ويقصد به الهولي، وحد المشرق ويقصد به الصورة. وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون في عين فوارة لعلها علم المنطق تظهرهم وتزكيهم، إذ تضيء لهم الحقائق. ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة

التي تتسلط على الأرض والكون، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهي الذات الإلهية. ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رتب على سكك خمس كسكك البريد، ويريد بها الحواس الخمس، ويقول إن في الأرض أمة بررة رامزاً بها إلى القوى العاقلة. وبذلك تنتهي الأقصوصة.

وأقصوصة سلامان وأبسال لها أصول يونانية، وهما أخوان كان أبسال أصغرهما سنّاً وتربى في كنف أخيه، ونشأ جميلاً عفيفاً، شجاعاً عالماً أديباً. وسلامان في الأقصوصة هو النفس الناطقة، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان، وكانت لسلاما زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة، عشقت أبسال، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك، ولما خلت به أظهرت له عشقتها، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية. ومكرت به فزوجته بأختها، وقالت لها إنني لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك، وإنما ليكون لنا معاً. وفي ليلة الزفاف جاءته بدلاً من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها، فلاح برق في السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها. ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق، وينكشف الشرك لعين أبسال، ويتخلص من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض. وينتظم جندياً في الجيش ويفتح كثيراً من البلاد رمزاً إلى الإطلاع على الملكوت الأعلى. وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسان لأبسال السم ويموت. ويثار الأخ لأخيه، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزي القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية). وسلامان نفسه في قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية.

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزاً للحرية، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة إلى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال، ويتصور نفسه طائراً مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون، فنصبوا لها الشباك، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبث بأجنحته وأرجله، فاستسلم للهلاك، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكربه ناسياً حريته الضائعة كما نسيت الأرواح الإنسانية عالمها الذي هبطت منه، وأصبحت سجيناً البدن. وتخلص بعض الطيور رءوسها وأجنحتها من الشباك، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها. ويجمع

الطير قوته والشباك عالقة به، وييمم جبل الملك رجاء أن يفكها عنه، ويرى من دونه سبعة جبال ما يزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك في مدينة وراءه فينفذ إليه ويبهره جماله، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك، ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه، وانصرف الطير مسرورا. وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان في سبيل تخلص الأرواح من أجسادها، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة في بيئات المتصوفة، بينما يرمز الرسول الذي يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت.

ويعيد يحيى بن حبش السهروردي كتابة أقصوصة حي بن يقظان متخذاً لها اسماً جديداً هو الغريبة الغريبة، وحي بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنساني كما رأينا عند ابن سينا، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه. ويستهل الأقصوصة السهروردي بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ما وراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أسرا وقيدا في السلاسل وألقي بهم في بئر عميقة. ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التي تحول بين لإنسان وبين حياة الإشراق. ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهداً في ليلة قمراء في منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادي الأيمن من البقعة المباركة. وهو كتاب حمل إليهما من الذات العلية يدعوهما إلى السفر (رمز الجهاد الصوفي) بغية الوصول، ويأمرهما بركوب سفينة تجري بهما في موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء، ليريا صومعة (الله). ولعله رمز بالموج إلى الشهوات. ورأيا في الطريق جماجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخاً كبيراً تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله. وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله. ويطلب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلاً إنه يمكنه المجيء إليه كلما شاء. وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفي لا يستطيع التخلص نهائياً من علائق الأرض. ويقول الله إنك ستتخلص يوماً (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه. ويلقاه في الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيثان ربما كانت رمزاً للشهوات.

وكانت الرحلة شاقة. واتخذ السهروردي من مشاقها رمزاً للعناء الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية، وقد ختمها بقوله " نجانا الله من قيد الهيولى والطبيعة ".

وإذا كان القصص نا في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النشر الأخرى نمت بدورها، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ. أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية، وهي أكثر وأوسع من أن نقف عندها، وخاصة أنها كانت علمية الطابع. وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاح الجمعة وطوال شهر رمضان. ويصور السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ ما ينبغي أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه، فيقول^(١): إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحاً في نفسه ورعاً متواضعاً، وأن لا يكون متكبراً ولا فظاً غليظاً، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء، وأن لا يحدث الناس إلا بما صح عنده من الأحاديث النبوية والأخبار، وأن لا يسأل إنساناً هدية، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته، وينبغي أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء، فلا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء، وإن كان الواعظ محتاجاً إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطاً وإقبالاً على سماعه. ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ، بل يظلوا ناشطين متنبهين.

ونلم على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ، فمنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل - كما مر بنا - يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة، وإنه كان يعظهم بالعربية والفارسية^(٢)، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورزق من

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) السبكي ٤ / ٢٧١.

التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره، وكان لا يتلعثم في كلمة^(١). ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومرتبنا ما قيل في وعظه من أنه "لوقرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب". ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أحمد قيل فيه: "كان واعظاً تنفلق الصخور الصم عند سماع تحذيره، وترعد فرائض الحاضرين في مجالس تذكيره"^(٢). ومنهم فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظاً كبيراً وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء. وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي، فصاح به وهو على المنبر، يا سلطان العالم! لا سلطانك يبقى، ولا تلبس الرازي يبقى، وإن مردنا إلى الله^(٣).

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملاً مهماً في كثرة الرسائل الديوانية، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدره^١ كتاب اشتهروا بحسن البيان، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صوراً من التأنق حتى يرضوا أمراءهم، وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حلى مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحليات والتنميقات. وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيختبرون، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها، وحينئذ يلزم كاتباً من كتابها، يعمل بين يديه، حتى يخرج كاتباً ماهراً. وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أو عاصمتها، وبعضهم يرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة. وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم، تنافساً أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية. وكان من يظهر منهم نبوغاً يرتقي سريعاً وقد يصبح رئيساً للديوان، وقد يصبح وزيراً يدير أمور الدولة كلها، وربما أصبح والياً لمدينة كبيرة. وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة، حين كانت

(١) ابن خلكان ٣/١٦٨.

(٢) السبكي ٦/١٩١.

(٣) السبكي ٨/٨٩ وما بعدها وابن خلكان ٤/٢٤٩.

العربية لا تزال غالبية ولا يزال سلطانها نافذاً في الأعمال الرسمية. وبالمثل ظلت في تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة، فالأدباء يصورون في رسائلهم الشخصية عواطفهم في التهادي والاستمناح والثناء والذم والتهاني والعتاب والاستعطاف والتعزية، مظهرين في هذا المجال براعة في طرافة التفكير وجمال التعبير، وسنعني في الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية، ونقف قليلاً عند قابوس بن وشمكير ومحمد بن عبد الجبار العتي ورشيد الدين الوطواط من كتاب الدول والإمارات ثم نلم بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل في العصر وتلميذه صاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة.

كتاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جمع الأدباء من حولهم، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادي مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة، ولعلنا لم ننس ما مر بنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجري، فقد كان السامانيون في بخارى بخراسان والبويهيون بالري والزياريون في طبرستان وجرجان، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان. وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء، وكانوا دائماً يختارون كاتباً كبيراً ليتولى شئون دواوينهم، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة. ولم يكن أصحاب الإدارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم، بل كان أيضاً يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبي في كتابه اليتيمة، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبي واسع، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى في الري لأصبهان والجل و فارس والأهواز.

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلاً عما وراءه من قرون، ولذلك سنكتفي ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولي أو التتاري في القرن السابع الهجري. وأول من نقف عندهم كتاب الدول السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبي الفضل بن العميد كبير كتاب القرن الرابع وعلي بن محمد^(١) الإسكافي النيسابوري وأسرته بني ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمناه له بين شعراء الغزل، ويقتطف

(١) انظر في الإسكافي اليتيمة ٩٥ / ٤ ومعجم الأدباء ١٤ / ١٥٧.

الثعالبي فصولاً طريفة من رسائله. وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو في الترجمة لأدباء بخاري ونيسابور ومن طراً عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان، وسنفرد له حديثاً، ومثل أبي بكر الخوارزمي، وقد ترجمنا له في شعراء الهجاء، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية في العصر ورسائله مطبوعة، وقد تحدثنا عن فنه الكتابي وبراعته الأدبية في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي".

ويفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة في ذكر كتاب الدولة البويهية في الري وأصبهان والجيل وفارس والأهواز وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد، وسنخص كلاهما بحديث، ويشيد الثعالبي بأبي العباس^(١) الضبي المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره، ويجري في طريقه، ترسماً وترسلاً. وكان لجرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء، ولعل كاتباً فيهما لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير في الترسل والكتابة، وسنلم به وبكتابه عما قليل. ونلتقي في الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفي مقدمتهم أبو الفتح البستي، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة، وكان يعاونه في الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي، وسنقف عنده بعد قليل. ومن كتاب الدولة الغزنوية أبو بكر القهستاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كتاب الأمير محمد بن محمود الغزنوي. ويذكر الثعالبي في تنمة اليتيمة بعض أسجاعه في رسائله. ومن كتاب هذه الدولة أيضاً القاضي أبو أحمد منصور^(٢) بن محمد الأزدي الهروي المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء.

ونمضي إلى الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ونجد على رأس كتابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكندري المار ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية: "لعميد الملك الكندري طريقة في الترسل محمودة، وموافقة في

(١) راجع في الضبي اليتيمة ٢٨٧/٣ ومعجم الأدباء ١٠٥/٢.

(٢) انظر القاضي منصور الهروي في تنمة اليتيمة ٤٦/٢ والدمية ١٥٣/٢ والسبكي ٣٤٦/٥ ومعجم الأدباء ١٩١/١٩.

البلاغة مشهودة^(١) ويذكر نموذجاً من كتاباته. ومن كتاب هذه الدولة أبو الحسن^(٢) الحسيني البلخي، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد، ويسوق البخارزي في الدمية نموذجاً من سلطانياته. ومن كتاب هذه الدولة أيضاً البخارزي صاحب الدمية، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون، والطغرائي ومرت ترجمته بين شعراء المديح، والأبيوردي وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفها وغيرهما من البلدان، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى.

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة، ويكفي أن هذا النشاط أنتج العالم المعتزلي الكبير الزخشي المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتباً كبيراً يعد آخر كتاب الدواوين الناهين في إيران، وهو رشيد الدين الوطواط، وسنخصه بكلمة، بعد إلمامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العتبي.

قابوس^(٣) بن وشمكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وجرجان وبلاد الجبل، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى "آل قارن" إحدى الأسر السبع الرفيعة - فيما يقال - لعهد الساسانيين. وينسبه البيروني هو وأسرته إلى "قباذ" الملك الساساني. ولى الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير بن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب "شمس المعالي" واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً، حتى استرد ملكه سنة ٣٨٨. وكان أميراً جليلاً القدر بعيد المهمة، غير أنه كان - كما يقول ابن خلكان - على ما خص به من المناقب، والرأي البصير بالعواقب، مر السياسة لا يساغ كأسه، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه، يقابل زلة القدم، بإراقة الدم، لا يذكر العفو عند

(١) راجع الكندري في الدمية ٢/ ٢٣٠ وابن خلكان ٥/ ١٣٨ والشذرات ٣/ ٣٠١ وابن الأثير في مواضع متفرقة.

(٢) انظره في الدمية ٢/ ١٧٧.

(٣) راجع ترجمة قابوس في اليتيمة ٤/ ٥٩ واليمينى للعتبي مع شرع المنييني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ٢/ ١٤-١٧، ١٧٨-١٧٢ / ٢١٩ وابن خلكان ٤/ ٧٩ والمنتظم ٧/ ٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٣٣ وابن الأثير في مواضع متفرقة وديوان المعاني للعسكري ١/ ٨٦ والفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥.

الغضب، فما زال على هذا الخلق، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان. وكان ابنه منوچر بطبرستان فاستحثوه على السير إليهم لعقد البيعة له، فأسرع في الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه، ونزل على إرادتهم، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

وكان قابوس مكرماً للعلماء والشعراء يجزل الصلات لهم، وقدم له البيروني كتابه "الآثار الباقية" وقدم له الثعالبي كتابيه: "المبهج" و"التمثيل والمحاضرة". وكان مثقفاً ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل، ويقال إنه كتب في الأسطرلاب كتاباً كان يعجب به صاحب. وكان أديباً بارعاً، وهو يعد من كبار الكتاب في عصره، وفيه يقول الثعالبي: "جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم، وإني أتوج هذا الكتاب (اليتيمة) بلمع من ثمار بلاغته.. وأكتب فصولاً من عالي نشره". ويقول العتبي في كتابه اليميني: "إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد، لكنني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه، وزهرة من حدائق إحسانه". ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه "ديوان المعاني" بأنها لا نظير لها في الافتخار والعتاب. وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبد الرحمن بن علي اليزدادي باسم "كمال البلاغة" ونشرت في القاهرة، ونراه يحلل في مقدمته لها بلاغته، وقد ردها إلى أربعة عشر نوعاً في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقداً شديداً، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته، وكأنه اتخذ منه أداة للهو وتسلية على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله:

"الإنسان خلق ألوفاً، وطبع عطوفاً، فما لسيدي لا يجنى عوده، ولا يرجى عوده، ولا يخال لفيفة مخيلة، ولا يحال تنكره بحيلة، أمن صخر تدمر قلبه، فليس يلينه العتاب، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب".

وواضح تصنع المعقد للجناس في سجعاته إذ يجانس بين "عوده" و"عوده" ملتصقاً جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين، وقد يلتصم الجناس عن طريق الاشتقاق كما

في "يخال" و"خيلة" وفي "يخال" و"بحيلة". وقد يلتبس في تغاير بعض الحروف في الكلمة كما في "خيلة" و"بحيلة". وكل ذلك ليظهر مهارته في تضيق ممراته إلى أسجاعة. وفي كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" بيان واف لهذا الجانب عنده.

أبو النصر^(١) العتبي

هو محمد بن عبد الجبار العتبي، مولده ومرباه في الري، وقد فارقها في شبابه، وقدم خراسان على خاله أبي نصر العتبي وكان من وجوه العمال بها، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز عند الوالد الحاني إلى أن وافاه القدر. وتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال في الدواوين إلى أن استقر أمره في العمل مع أبي الفتح البستي في ديوان أبي منصور سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية، وظل يعمل بعد وفاة سبكتكين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم، وكان محمود يعترف - كما مر بنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسي، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة. واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبنجاب في الهند. وعني أبو النصر العتبي بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي خلعه عليه الخليفة: "يمين الدولة" وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧. وربما كان في ذلك ما يدل على أنه صنفه في وقت متأخر، وأنه لم تتح له الفرصة لتكملته. ويقول السبكي: "وأهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بقمامات الحريري" وهو مطبوع في القاهرة مع شرح الميني له في القرن الماضي، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي، يقول:

"الأمير السيد، الملك المؤيد، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين، ملك الشرق بجنييه، والصدر من العالم ويديه، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها

(١) انظر في ترجمة العتبي اليتيمة ٣٩٧/٤ والسبكي في ترجمة محمود بن سبكتكين الغزنوي ٣١٩/٤ وبروكلمان (الترجمة

العريضة في قبضته، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته، وجبايته، واستدراثهم " دفعهم " من آفات الزمان بظل ولايته، ورعايته، وإذعان ملوك الأرض لعزته، وارتياحهم بفائض هيئته، واحتراسهم - على تقاذف الديار، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ ركضته " .

والعتبي بكتابته تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصابئ في كتابه " التاجي في ملوك بني بويه " الذي كتبه قبله بنفس اللغة، وقد سقط " التاجي " من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العاملين. ويبدو أن كتاب العتبي كان أخف، فتعلقت به القلوب والأفئدة، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة. وعلى شاكلته في خفة السجع وعذوبته ورسائله، فإن الفصول التي حكاها الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يذم الدهر:

" عَتَبَكْ عَلَى الدَّهْرِ دَاعٍ إِلَى الْعَتَبِ عَلَيْكَ، وَاسْتَبْطَأُوكَ إِيَّاهُ صَارَفٌ عَنَّا اللَّوْمَ إِلَيْكَ، فَالدَّهْرُ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ اللَّهِ مَنْزَعُهُ عَنْ مَقَابِضِ أَحْكَامِهِ، وَمَطْلَعُهُ مِنْ جَانِبِ مَا حَرَّرْتَهُ مَجَارِي أَقْلَامِهِ، وَالْوَقِيعَةُ فِيهِ، تَمْرُدُ بِحُكْمِ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ، وَمَجَارِي الْأَشْيَاءِ عَلَى قَدَرِ طِبَاعِهَا، وَبِحَسَبِ مَا فِي قَوَاهَا وَأَوْضَاعِهَا، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلُومُ الْأَرْاقِمَ عَلَى النَّهْشِ بِالْأَنْيَابِ، وَالْعُقَارِبِ عَلَى اللَّسَعِ بِالْأَذْنَابِ، وَأَنَّى لَهَا أَنْ تَذِمَّ، وَقَدْ أَشْرَبَتْ خَلْقَتُهَا السَّمَّ وَحُكْمَ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ مَطَاعٌ، وَبِأَمْرِهِ رِضَا وَاقْتِنَاعٌ " .

ولغة العتبي سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة، وسجعه ينزلق عن الألسنة في يسر، وليس في الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس، مما يتعثر في الأفواه.

رشيد الدين^(١) الوطواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمري الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضآلة جسمه. من سلالة عمر بن الخطاب، ولد ببلخ وبها نشأ وتربى في المدرسة النظامية، وكان شاعراً كما كان كاتباً، وله مصنفات عدة، منها: "غرر الخصائص الواضحة" وهو من كتب الأدب التهذيبي، ومنها: "حدائق السحر في دقائق الشعر" وهو في علم البديع والصناعة الشعرية، وضعه بالفارسية، وأمثله فيه موزعة. بين الفارسية والعربية، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين. ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق في سنة ٥٢٢ للهجرة بواوين الدولة الخوارزمية في عهد أميرها الطموح الباسل أئسز (٥٢١-٥٥١هـ) ويظل بعد وفاته يعمل في دواوين الدولة، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهن عظمه، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أئسز حين تولى مقاليد الأمور في خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه في محفة، فلما مثل بين يديه نظم رباعية في مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية. وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات، واختلف مؤرخوه، فقليل توفي سنة ٥٧٣ وقليل بل سنة ٥٧٨.

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً: "كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته، وسار في الأقاليم ذكره، وكان ينشئ في حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معاً" ويقول ياقوت: من مؤلفاته تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب، وأنس اللفهان من كلام عثمان بن عفان، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب. ويقول أيضاً: له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية، وشعره دون نثره جودة. ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزئين، وهي موزعة بين رسائل

(١) راجع في الوطواط وترجمته معجم الأدباء ١٩/٢٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر في دقائق الشعر، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه في الفارسية. وانظر بروكلمان ٥/١٤٢ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠.

شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية. ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم، وفيه يقول:

"أن أولى الأمور بأن تصرف أعنة العناية إلى ترتيب نظامه، وتقصر الهمم على مهمة إتمامه، أمر يتعلق به ثبات الدين، ويتوقف عليه صلاح المسلمين، وهو أمر الاحتساب فإن فيه تثبيت الزائعين عن الحق، وتأديب المنهمكين في الفسق، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها. وينبغي أن يكون متقلد هذا الأمر موصوفاً بالديانة، معروفاً بالصيانة، معرضاً عن مراصد (أماكن) الريب (التهمة) بعيداً عن مواقف التهم والعيب، لابساً مدارع السداد، سالكاً مناهج الرشاد. والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحل بهذه الخصائص المذكورة، والفضائل المشهورة، ومستظهر في دولتنا للحقوق الفرضية، ومستشعر للصفات المرضية، فقلدناه هذا الأمر.. وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره، والزهد دثاره، والعلم معلمه والدين مناره. ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويطبق حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار، ومقتضى السنن والآثار.. وأمرناه أن يبالي في تعديل المكايل والموازن، على وفق أحكام الشرع والدين، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سواء عدله، وغيره وبدله، وأدب صاحبه على رءوس الأَشهاد، لينزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد".

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشرطي، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضي، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام. وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد، إذ لا بد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام. وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي، فيراقب المكايل والموازن، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدله على رءوس الأَشهاد، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدثهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة. والتقليد جميعه مسجوع، وليس فيه

ألفاظ غريبة، فالوطواط ينطلق في سجعه، وكأنه ينساب من معين زاخر دون أي عائق أو حائل. وبمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهي تجري سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشري يستأذنه في حضور دروسه ومجالسه:

"أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني، ومعاهد أهلي وجيراني، إلى هذه الخطة (خوارزم) التي هي اليوم بمكان جار الله - أدام الله دولته - جنة للكرام، وجنة (سترا) من نكبات الأيام، كانت قصوى منيتي، وقصارى بغيتي، أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة التي هي مخيم السيادة، ومقبل أفواه السادة، من ألقى فيها عصاه، حاز في الدارين مناه، ونال في المحليين مبتغاه، ولكن سوء التقصير، أو مانع التقدير، حرمني تلك الخدمة، وحرم علي هذه النعمة. والآن أظن - وظن المؤمن لا يخطئ - أن آفل جدي (حظي) هم بالإشراق، وذابل إقبالي أقبل على الإبراق، فقد أجد في نفسي نوراً مجدداً يهديني إلى جنته، ومن شوقي داعياً موفقاً يدعوني إلى حضرته".

وتحضي الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعي. وكان يفسح في شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع. ونتركه للحديث عن ثلاثة هم في الذروة من أدباء العصر في مختلف حقبة الماضي: ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان.

ابن العميد^(١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين، فارسي الأصل، من مدينة قم الشيعية الإمامية، فيها منشأه ومرباه، مما أعده ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين. وكان أبوه كاتباً فذاً، كتب لما كان بن كافي ثم للسامانيين، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل. ولم يلحق ابنه معه بديوانهم، بل ألحقه بدواوين البويهيين. وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الري، ولم يزل يترقى عنده، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠.

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور: "كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة.. أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم". ويقول ابن الأثير: "كان عالماً في عدة فنون، منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء". ويقول ابن خلكان: "كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم".

(١) انظر في ابن العميد وترجمته اليتيمة ٣/ ١٥٤ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه في مواضع متفقة وابن الأثير ٨/ ٥١١، ٥١٦، ٦٠٦ وابن خلكان ٥/ ١٠٣ والشذرات ٣/ ٣١ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ١/ ٦٦ وكتابه "مثالب الوزراء" وفيه تحامل شديد عليه وانظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٠٥.

وكان- كما لاحظ ابن الأثير- يحسن قيادة الجيوش، وحقق للدولة انتصارات عظيمة، من ذلك انتصاره على محمد بن ماکان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة ساحقة. ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥. وخرج في سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردي، ولكن المنية أدركته دون غايته، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً. وظل وزيراً ثلاثة وثلاثين سنة. وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلات، وقصده أبو الطيب المتنبّي بأرجان، فاستقبله استقبالاً حافلاً، وفيه يقول:

رأيه فارسية أعياده

عربي لسانه فلسفي

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته، وفي ذلك يقول الثعالبي: "أوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الياسة وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس. يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها. وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد". ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال التالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع، وكان السجع معروفاً من قبله في الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجري، على نحو ما مر بنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني، وسنراه يدخل عليه ضرورياً من الموازنة في السجعتين المتواليين، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه. والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع، فالسجع وحده لا يكفي، بل لابد أن تضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه. ونسوق مثلاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه، مفتتحاً كتابه بقوله:

"كتابي إليك، وأنا متأرجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمه، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب حقاً ورعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول^(١) وخيانة، وتتبعهما بآنف^(٢) خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسقط كل ما يرمى لك".

وهذه النغمات الأولى في الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذي التزمه ابن العميد في كتابته، فهو يلتزم السجع، وليس ذلك فحسب، بل هو يوازن بين السجعات، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة، فسجعة "تدل بسابق حرمة" توازنها في دقة السجعة التالية لها: "تمت بسالف خدمة". ومثلها السجعتان: "ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية". وهو لا يلتزم السجع فحسب، بل يكثر من الطباق مثل "طمع ويأس" و"إقبال وإعراض" كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتساوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه:

ألم تكن في ظلّ ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء عذّي^(٣) وماء روي، ومهادٍ وطي (لين) وكن^(٤) كنين^(٥)، ومكان مكين، وحصن حصين".

وكل هذه كنيات واستعارات لما كان فيه هذا العاصي لركن الدولة حين كان يضع يده في يده، فقد كان في سعادة ما وراءها سعادة، فإذا كل نعيم كان فيه يتحوّ بؤساً وشقاء. وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً:

"قد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها، وانتقاض مررها (قواها).. الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الأوباء، وتسلبت المخالفين في

(١) غلول: خيانة.

(٢) آنف: أشد.

(٣) عذّي: خالص.

(٤) الكن: ما يرد الحر والبرد من الأبنية.

(٥) كنين: مستور.

المذاهب والآراء.. وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يؤلده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته. وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها، وهي نور^(١) نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه، وشرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه، تتلف إليه تلفت الوامق، وتتشف نحوه تشوف الصب العاشق".

والفصل طريف في دلالة على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه. والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقيره، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول، وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلامة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى. وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه.

(١) نور: جمع نوار: شاردة.

الصاحب^(١) بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، من أهل الطالقان: ولاية بين قزوين وأبهر، ولد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالري، وعني به، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد، فكان يصحبه دائماً، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد، وظل هذا اللقب علماً عليه، وقيل بل صاحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه اللقب واشتهر به. ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفي سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقره على وزارته، وكان مبعجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر. وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد، حتى قيل: كان "مَنْ يُؤْذَنُ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال، ونال الفوز بالدنيا والآخرة، فرحاً ومسرة، وشرفاً وتعظيماً، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه.. ولم يكن يقوم لأحد من الناس، ولا يشير إلى القيام، ولا يطمع أحد منه في ذلك". وما زال وزيراً لفخر الدولة حتى توفي سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفي أغلقت له مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم. ومشى

(١) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله اليتيمة ١٨٨/٣ والمنتظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ إنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤، ومثالب الوزراء لأبي حيان، يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في الغرض منهما كما أشرنا إلى ذلك. ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيقي وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام. وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب، وكذلك للدكتور بدوي طبانة (طبع القاهرة). وانظر المدخل بين يدي الرسائل وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢١٢ وما بعدها.

فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس، وقعد للعزاء أياماً. وفيه يقول الثعالبي: "ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرد به بغايات المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومسعهي ولكني أقول: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان.. وكانت أيامه للعلوية والعلماء. والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروقة إليهم، وصنائه مقصورة عليهم، وهمته في مجد يشيده، وإنعام يجده، وفاضل يصطنعه، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه.. وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام، وبدائع الأفهام، وثمار الخواطر، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح.. واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد؛ ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، ومليك رقيق المعاني". ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد. وكان يقول: مدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية، بل ربما كان يتقنها إذ روى أنه اختبر قدرة بيدع الزمان الهمداني، حين مرّ ببابه، في الترجمة من الفارسية إلى العربية.

وكان شاعراً مجيداً، كما كان كاتباً مجيداً، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدي الشيعي والمعتزلي، فقد كانت شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة، وقد نشر محمد حسن آل ياسين ديوانه كما مرّ بنا، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله:

فقلت: إني شيعي ومعتزلي

قالت: فما اخترت من دينٍ تفوز به

وقوله:

فإني في التوحيد والعدل أوحّد

ومن كان بالتشبيه والجبر دائناً

وهو يحمل على المشبهة والمجبرة حملات شعواء، كما يحمل نفس الحملات على من يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول:

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظر إلى أين صعدوا

وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها - فيما مر - أطرافاً. وصنف في اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل علي بن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوي المتنبي وكتاب في المقصور والممدود. وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر مجلدات، وأنها كانت حمل أربعمئة بعير.

ورسائله منشورة، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا البابين السابع عشر والثامن عشر، وأولهما في الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل، والثاني فصول قصيرة وتوقعت موجزة. وقد ذكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها. وجميعها ديوانية، أو الكثرة الكثيرة منها، ولذلك كانت تعد وثائق قيمة عن الدولة البويهية، وخاصة أن صاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقضاتهم كما يعرض معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة. والباب الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسودان. وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين. وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين مع أنه " لا يقبل في جهة من الجهتين أباقي العساكر، ولا يمهد في جنبه من الجنبتين للخالع والنافر، ولا يحامى على من عصا فشرد، وشق العصا وانفرد ". ومن الطريف أن نتعقب ما جاء في الباب الثاني من العهود للقضاة والولاة والمحتبس، وخاصة عهود القضاة، لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حيثئذ في القضاء ومصادره؟. وفعلاً يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار. وفيها أيضاً أن التركة لا ترد إلى

بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوي الأرحام، وهو ما أشار إليه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات. وعلقنا عهد في الحسبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئوليته. وتلقنا عهد في معاملة الرعية وفي قسمة الماء في بعض الأودية، كما علقنا باب عن الحجيج والمصالح والثغور. وفي الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كتبتا بمناسبة نشوب ثورة في قزوين بين الشيعة والسنة، ونرى الصاحب يدعو فيهما إلى أن تحل الألفة والوئام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى. وفي ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعي في أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له. وطبيعي أن نحس في بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزلياً، وفي الباب السابع عشر رسالتان صريحتان في أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول في نحلة الاعتزال. ومن قوله في إحداها: "كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده، والتصديق بوعدده ووعيده، هذا وفي فقهاءه وفور، وفي الفضل به ظهور، وقد أعان الله على بث كلمة الحق، وسمع الأكثر على لين ورفق". وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع، وكاننا متأخين حينئذ، فعمل على نشره لينتشر من ورائه التشيع مبتغاه. وفي الرسائل - من حين إلى آخر - ما يدل على نزعة الشيعة وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين. وتلقنا في الباب التاسع عشر رسالة هي عهد لعلوي ولي النقابة بين الذرية الطيبة، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يحكم بين العلويين، وأنه كان لهم قضاء مستقل في الدولة، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة، ويأمر النقيب بتعقهم وإشهار أمرهم، وفي الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التي كان يقدمها البويهيون للعلويين.

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة، لأنها المجموعة الوحيدة التي وصلتنا عن كتاب البويهيين في القرن الرابع الهجري، وهي دائماً تبتدئ بالتحميد والتمجيد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بالدعاء. ويعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذي يكتب عنه مكثفياً بلقبه المشهور الذي خلعه

عليه الخليفة، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة. وإذا كانت الرسالة في فتح عظيم أطال في الدعاء تنوياً بالفتح. والرسائل كلها مكتوب بأسلوب ابن العميد الذي يقوم على السجع والبديع، ويروى معاصروه طرفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره، حتى زعموا أن ابن العميد قال: خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين: فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شيء إلا ليكتب إلينا: "كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت في نصف النهار". وقالوا إن سجعة اضطرتته إلى عزل قاضي مدينة قم، فقد كان في حضرته، فقال له: أيها القاضي بقم، وأراد أن يكمل السجعة، فأعياه إكمالها، فقال: قد عزلناك فقم. ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان، وفي تكلفه للسجع يقول: "كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجحد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد.. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها جبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقیل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها". وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد صاحب يترك نفسه على سجيتها، فإن واتاه السجع مضى فيه، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامهما تفنناً يدل على مهارة واسعة، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعة وسجية من سجاياه. وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير، ومقطعها الأول يجري على هذا النمط:

"أحسن نعم الله تعالى غرراً وأوضاحاً، وأبينها فلماً وصباحاً، وأولاهها إذا تصفحت المواهب أخذاً بحظ السابق، وأولاهها إذا اتبعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق، وأحراها بأن تشنى عليها السنة الأيام والليالي، وتشنى إليها أعناق المحامد والمعالى، نعمة صادفت حمداً وشكراً. وجمعت فتحاً ونصراً، ونظمت نجاحاً وقهراً، واستذلت ممتطياً للجحود لاهياً عن

غوره، مستشراً في الغموط عادياً لظوره. وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذا عضد الدولة، وتوج الملة، وحرس الأمة، وزحزح الغمة، ورغد الخلافة، وبسط العدل والرفاة، وطهر البلاد، وعمر الحج والجهاد، وساس الجمهور، وسد الثغور، فشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله، ومحوط الملك بيد الله، لا ينازع رأيه منازع إلا تل لجبته^(١)، وعوجل بقطع وتينه^(٢)، ولا يمانع رايته ممانع إلا غلت يده دون مطلبه، واقتطع أمدّه عن مهره، ولم يعز بالتحصن عليه مارق، والتمنع دونه مشاق مفارق، إلا استولى عفواً على غيات احتياله وأقاصيه، ومكن منه القضاء سمحاً فاستنزل عن معاقله وصياصيه^(٣)."

وواضح أنه تمثل طريقة أستاذه ابن العميد، فهو يعني أشد العناية بانتخاب ألفاظه، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً. ويعني بأسجاعه، فهي تتقابل وتتوازن مهما طالت، كقوله: "وأولاهها إذا تصفحت المواهب أخذاً بحظ السابق، وأولاهها إذا تتبعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق" وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدي مع قرينتها في العبارة الأولى. ومثلها السجعة التالية: "وأحراها بأن تنني عليها السنة الأيام والليالي، وتنني إليها أعناق المحامد والمعالي" وكأن الكلمات في العبارتين تتعاقب. واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائل الصاحب، فستجد دائماً هذا التعاقب والتشابك بين كلمات السجعات، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة. ولا بد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع، فالنعم ذات غرر وأوضاع كخيال الحرب الظافرة، بل هي كالصباح الجميل البهيج، وتتوالى الأخيلة والصور في المقطع. ويكثر فيه الجناس مثل غوره وطوره، والأمة والغمة، وينازع ومنازع، ويمانع وممانع، ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تخلب ألباب السامعين، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في "أولاهها، وأولاهها" و"تنني وتنني". وجعلته قدرته على حشد السجعات يكثر من الجمل

(١) تل لجبته: صرع على وجهه.

(٢) الوتين: الشريان الرئيسي للقلب.

(٣) الصياصي: الحصون.

الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطلع هذا المقطع، فقد بدأ بمبتدأ هو " أحسن نعم الله " وفصل بينه وبين خبره، وهو "نعمة صادفت حمداً وشكراً" بنحو ثلاثة أسطر، ونقده أبو حيان، وقال إن هذا يحدث تعاضلاً في أساليبه^(١). وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً، وهو نادر عنده، على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتاب العصور التالية وخاصة عند العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل. وليس معنى ذلك أن صاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع، بل هي تطول أحياناً، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول: " نعمة صادفت حمداً وشكراً، وجمعت فتحاً ونصراً، ونظمت نجحاً وقهراً ". وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية، كقوله في عزاء ابن عن أبيه، وكان عالماً تحريراً:

" للفجائع اختلاف مواقع، وللمصائب تباين مراتب، ومن أشدها لدعاً، وأعظمها وقعاً، فجيسة أخرجت صدور قوم مؤمنين، ومصيبة خست العلم والدين، لفقد الشيخ المنقطع القرنين، أبي عثمان - رحمه الله، وأكرم مأواه، ومثواه فقد كان للإسلام جمالاً ممتداً، وللدين ركناً مشتداً، وللعلم شهاباً لا يخبو، وللأدب سهماً لا ينبو، يذب عن حق الله القائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، عاش عظيم الخطر، ومات جميل الأثر، التقوى شعاره، واليقين دثاره، وحجج الله مفزعه، وآيات الله مرجعه، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحدين، وأسره إلى الملحين، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار، وأعلام الأمة الأخيار ".

ويمضي في مثل هذا السجع القصير موشياً له بالجناس، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه، كما نرى في مثل " مأوه ومثواه "، و " ممتداً ومشتداً " و " لا يخبو ولا ينبو " و "لومة لائم ". وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى في مثل " الموحدين والملحين ". وله تهنئة طريفة ببنت ولدت لبعض أصحابه تمضي على هذه الشاكلة:

" أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، نجباء يتلاحقون:

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٦٤.

لفُضِّلَت النساءُ على الرجالِ

فلو كان النساءُ كمثلي هَذِي

ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ^(١)

وما التأنيثُ لا سم الشمسِ عَيْبٌ

فادرع يا سيدي اغتباطاً، واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والذكو يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، ولها بعث المرسلون، فهنيئاً هنيئاً ما أوليت، وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقي الأمد، وكما عمر لبد^(٢).

والرسالة مؤلفة من السجع القصير، ويجليها صاحب الجنس من مثل "الأصهار والأطهار" وهو قليل فيها، وكأنه لم يكن يتأنق في الرسائل الإخوانية تأنقه في الرسائل الديوانية الطويلة. وفي الرسالة ظاهرة ينبغي الالتفات إليها، ونقص ظاهرة الاحتجاج، فقد احتج للتهنئة بالبنت - وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها - بست حجج أو ستة أدلة، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن "ومنها خلقناكم" والسماء مؤنثة وروعتها في كواكبها ونجومها فوق التصوير، والنفس مؤنثة وهي قوام الإنسان، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته، والجنة مؤنثة ولها بعث المرسلون وبها وعد المتقون. أدلة لا تنقض، وكأننا بإزاء مناظرة كلامية في تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر. يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين، ولا شك أن ذلك جاء من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ في أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم في التعليل والتدليل. وهي

(١) البيتان للمتنبي.

(٢) لبد: نسر، وفي الأساطير العربية أنه عمر أربعمئة عام.

تتضح في جدال المنحرفين عن الدولة وفي تعليقه العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة. ومن قوله في إهداء أترجة:

"مازلت يا سيدي أفكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق، وتنظم نعوت مشوق وشائق، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني وقد منيت ببعذك، وبليت بصدقك، وكأن عرفها^(١) مستعار من عرفك، وظرفها مشتق من ظرفك، فكأنها بعض من لا أسميه، وأنا أفديه، فأنفذتها وقلت:

مولاي قد جاءتك أترجة^(٢) من بعض أخلاقك مخلوقة
ألبسها صانعها حلة^(٣) من سرق أصفر مسروقه^(٤)

والرسالة تصور أناقته في اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين في قوله "معشوق وعاشق" و"مشوق وشائق". وهي تصور ظرفه ورقة مشاعره. ولم نتوقف عند تصاويره وهي كثيرة في رسائله الإخوانية والديوانية كقوله في وصف الورود السوداء في احمرار، المعروفة باسم الشقائق، ووصف الأشجار الخضراء والنارتجات الصفراء:

"قابلتني شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعت فبقى دماؤها^(٥)، وسامتي أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبرادها، وحضرتني نارتجات ككرات ذهب أو ثدي أبكار خلقت^(٦)".

وله رسالة لم يعن فيها بالسجع، وإنما عني بالتصوير وحده، وهي في استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه، وتطرد على هذا النمط:

"نحن يا سيدي في مجلس غني إلا عنك، شاكر إلا منك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه حدود البنفسج، وفحت مجامر الأترج، وفتقت فأرات^(٧) النارنج،

(١) العرف: الرائحة الطيبة.

(٢) السرق: شقق الحرير.

(٣) الذماء: بقية الروح.

(٤) خلقت: طيبت.

(٥) فأرة المسك: وعاءه.

وأنطقت ألسنة العيدان، وقام خطباء الأوتار، وهبت رياح الأقداح، ونفقت^(١) سوق الأنس، وقام منادي الطرب، وطلعت كواكب الندماء، وامتدت سماء الند^(٢) فحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد، وتتصل الواسطة بالعقد".

والرسالة مغموسة غمساً في صور وأخيلة متعاقبة، وكأنها ترك الصاحب نفسه على سجيته، فلم يعمد فيها إلى سجع. ولعل في ذلك ما يرد على من أتهموه بتكلفة للسجع وغرامة به، حتى لو كلفه ذلك ذلك خلاً في الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أوال، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما في هذه الرسالة. وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة. وكانت بديته حاضرة، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فمن ذلك أن ضرابين للنقود من دار الضرب رفعوا إليه رقعة في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم: الضرابين، فوقَّع تحتها "في حديد بارد". واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد في أثناء درس له فسأله متخابثاً عن قد سكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب: "هذا الذي تقوله بعد التوهم، وإنما سألتك قبله".

(١) نفقت: راجت.

(٢) الند: الطيب.

بديع^(١) الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين ولد سنة ٣٥٨ هـمذان، ولذلك يقال له الهمداني، ولقبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبي. وهو من أسرة عربية، نزلت مسقط رأسه، وهي أسرة تغلبية مصرية، ومن قوله في بعض رسائله: "همذان المولد، وتغلب المورد، ومُضَر المحتد" فهو ليس فارسي الأصل، بل هو عربي مصري تغلبي. وعني به أبوه، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره، وألحقه بحلقات العلماء، وخاصة حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجمل، وله يقول في بعض رسائله متلطفاً:

لا تَلْمُنِي على ركاكة عَقْلِي أَنْ تَيَقَّنْتَ أَنَّني هَمْدَانِي

وكان محباً للرحلة، فلم يكذب يبلغ الثانية والعشرين من عمره، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد، وكان - كما مرّ بنا في ترجمته - راعياً كبيراً من رعاة الأدب في عصره، بل كان أكبر رعاته، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية، وأحضره مجالسه، ويقال إنه كان يُلقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية، فينقلها في سرعة عجيبة.

ويرحل عن حضرة الصاحب مولياً وجهه شطر جرجان، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء، وهي أسرة الإسماعيلية، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلي الشيعي، وهو اتفاق في الاسم جرّ إلى هذا الخطأ^(٢). ويؤكد ذل أن ياقوت في ترجمته له يقول: "إنه

(١) انظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره اليتيمة ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٢٤٦/٢ وابن خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديماً ببغداد وطبع مراراً، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ص ٢٣٨ وأيضاً كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ١٣ وما بعدها.

(٢) راجع كتاب بديع الزمان الهمداني لمارون عبود (طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك في اسمه واسم أبيه وعروبته دون دليل.

كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة" فلم يكن إسماعيلياً، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً، بل كان سُنيّاً أشعريّاً.

ولا يمكن في جرجان طويلاً، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي، وهو اصطدام طبيعي، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية، فانتهاز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها للبديع، فعلا صيته، وتألق نجمه، إذ كان الخوارزمي يُعدّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره. وتصادف أن توفي سريعاً، فخلا الجو للبديع، وطارت شهرته، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها الناهيون. وسرعان ما فارقتها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينما الجوائز والمكافآت تُغدق عليه، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين وليّ وجهه نحو سجستان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤-٣٩٩هـ). وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان، ويقول الباخري إنه وصله بألف دينار. وذكر ذلك في إحدى رسائله، وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائد ورسائل مختلفة.

ويترك سجستان إلى هراة بأفغانستان، ممناً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، ويُصهر إلى سريّ من سراة هراة يسمّى الحشنامي، وينجب أولاداً، ويقتني عقاراً وضياعاً. ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء. ويؤ أنه غدت له مكانة كبيرة، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر، يقول في بعض رسائله: "وهؤلاء الصدور، يرون أن الشمس من قبلي تدول" غير أنه لم يلبث أن توفي وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة.

وللبديع رسائل كثيرة، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتفريع، ومنها ما هو موجّه إلى

الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوي الوجة واليسار. وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابوري:

"كتابي - أطال الله بقاء الأمير - وبودّي أن أكونه، فأسْعِضْ به دونه، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه. لولاه قفاه، وبعد فإنني في مفاتحته بين ثقة تَعِد، ويد ترتعد، ولم لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره، فقد سمعت خبره؟ ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره، وإذ لم أَلْقْه، فلم أجهل إلا خَلْقْه، وما وراء ذلك من تاليد أصل ونَشَب، وطارف فضل وأدب، فمعلوم تشيد به الدفاتر، والخبر المتواتر، وتنطق به الأشعار، كما تختلف عليه الآثار، والعين أقل الحواس إدراكاً، والأذن أكثرها استمساكاً".

وفي هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجع، وأنه يُعْنَى فيه بتصير العبارات، وحتى يخيّل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجري ولا ينقطع إلا أن يتوقّف البديع عامداً لينهي الكلام. وتأمّل في سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص في مثل: "تعد وترتعد" و"أره وخبره" و"أثره وأكثره" و"ألقه وخلقه". وهو دائماً يغمس رسائله في الجناس غمساً، تارة يأتي به كاملاً، وتارة يأتي به ناقصاً، وهو الأغلب الأكثر، كقوله في الأمير خلف بن أحمد في إحدى رسائله: "لو أن البحر عُدده، والسحاب يده، والجبال ذهبه، لقصرت عما يهبه. بينما المرء في سنة من نومه، وقصاراه قوت يومه، إذ يُقَرِّع الباب عليه قرعاً خفيفاً، ويُسأل به سؤالاً خفيفاً، ويُعطى ألفاً خفيفاً". والجناس الناقص واضح في هذه العبارات المتعاقبة، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات، ضمّاً دائماً النظر في الألفاظ إلى نظيره، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظر كقوله من فصل في إحدى رسائله:

"أرني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو نجم النجم أو لمع البرق أو عرض الغيث ضحك الروض. إن للشمس محيآه، وللريح ريآه، وللنجم جلاه وعُلاه، وللبرق سناؤه وسناه، وللغيث يداه ونَداه، وللروض سجاياه".

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أردفه بالريح والنجم والبرق والغيث والروض. والجناسات كثيرة في القطعة. وبجانب ذلك نراه يكثّر من الاقتباس من

القرآن، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور في تضاعيف رسائله. ونراه يجنح كثيراً إلى سرد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة:

"فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جملة ففقده، فلما طلع القمر وجده، فرفع إلى الله يده، فقال: أشهد لقد أعليته وجعلت السماء بيته. ثم نظر إلى القمر فقال: إن الله صورك ونورك، وعلى البروج دورك... ولئن أهديت إلى قلبي سروراً، لقد أهدى إليك نوراً. والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره، وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه، فجعله فوقهم وجعلهم دونه".

ويضرب مثلاً لمن يذهب في البحث بعيداً عن أمينته، وهي مدث يده، بالبخاري الذي ضاع حماره فذهب يبحث عنه في البلاد النائية، بينما هو في مربضه، يقول:

"لم يكن مثلي معه إلا مثل البخاري الذي ضاع حماره وخرج في طلبه، حتى عبر نهر جیحون بسببه، يطلبه في كل منتهلة، وينشده في كل مرحلة، وهو لا يجده حتى جاوز خراسان، وانتهى إلى طيرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده وأيس عاد وقد طالت أسفاره، ولم يحصل حماره، حتى إذا وصل إلى بلده، بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى اصطبله، فإذا الحمار بسرجة ولجامه، وحزامه، قائماً على المعلق ينش".

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره وبعد عصره. وجعلته موهبته القصصية التي رأيناها في رسائله يتدع فناً جديداً، هو فن المقامة، وهي حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته: أبي الفتح الإسكندري ورواية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام. والمعروف أنه أملي أربعين مقامة في اثناء مقامه بنيسابور، وأضاف إليها خمساً، كما أسلفنا، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير سجستان، ثم أضاف إليها ستاً أخرى. والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً أحاديث ابن دريد الأربعين التي احتفظ بها كتاب الأمالي لأبي على القالي، وهي حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب، وبعد أن أنهاها رأي أن يعرض على طلابه ثانياً أربعين مقامة له. ومعنى كلمة مقامة حديث. ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة الموضوعات، بل جعلها تدور على

موضوع واحد، هو الكُدية أو الشحاذة الأدبية، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المكدين في أوائل كتابه "البخلاء" وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه "المحاسن والمساوي" ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والدرهم والدنانير من الناس. وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماؤهم في عصر بديع الزمان، ومر بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق. وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته، ونراه في أولها يتمثل بأبيات كبير المكدين أبي دلف الخزرجي، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه، إذ يقول:

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورٌ فلا يغرّنك الغرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكدية.

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألم بها وأكثرها بلدان فارسية. وفي أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المضيرية نسبة إلى طعام المضيرة، وهي لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض. وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء. وسمي مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية. وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكدية، إذ هي مديح خالص له. أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاسح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس. وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارسات

وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء. ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء في بعض البلدان. وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً، وكانت الخصومة مستعرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة. ونحن نسوق له إحدى مقاماته، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق، وهي تجري على هذا النمط:

"حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت البصرة وأنا من سني في فتاء (شباب) ومن الزي في حبر ووشاء (ثوب مطرز) ومن الغنى في بقر وشاء (غنم) فأتيت المريد (سوق البصرة) في رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتزهات، في تلك المتوجهات، وملكتنا أرض فحللناها، وعمدنا لقداح اللهو فأجلناها، مطرحين للحشمة إذ لم يكن فينا، إلا منا، فما كان بأسرع من ارتداد الطرف، حتى عن (ظهر) لنا سواد (رجل) تحفضه وهاد، وترفعه نجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهم بنا، فأتلعنا (مددنا أعناقنا) له حتى أداه إلينا سيره ولقينا بتحية الإسلام، ورددنا عليه مقتضى السلام، ثم أجال طرفه فينا وقال: يا قوم ما منكم إلا من يلحظني شزراً (بمؤخر عينه) ويوسعني حزراً (تحمينا) وما ينبئكم عني، أصدق مني. أنا رجل من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية، قد وطأ (مهد) لي الفضل كنفه، ورحب بي عيش، ونماني بيت ثم جعجع بي (أهانني) الدهر، وأتلاني (أتبعني) زغاليل حمر الحواصل... ونشزت علينا البيض (الدراهم) وشمست (نفرت) منا الصفر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالي) وحطمتنا الحمر (السنوات المجدية)... وهذه البصرة ماؤها مهضوم (مهضم) وفقيرها مهضوم: فكيف بمن:

إلى زُغْبٍ محدَّدة العيون^(١)

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوي

جياغ النَّابِ ضامرة البطون^(٢)

كسَاهَنَ البِلَى شُعْثًا فتمسى

(١) زغب: من الزغب: صغار الريش والشعر والكناية واضحة.

(٢) شعثا: مغبرة، كناية عن أحداً لا يراهم.

ولقد أصبحن اليوم وسرحن (أجلن) الطرف في حي كميث (يقصد نفسه) وبیت كلا
بيت، وقلبن الأكف على ليت، ففضضن عقد الضلوع، وأفضن ماء الدموع، وتداعين
باسم الجوع:

والفقرُ في زمن اللئى
م لكل ذي كرمِ علامه
رَغِبَ الكرامُ إلى اللئى
م وتلك أشرطُ القيامة^(١)

ولقد اخترتكم يا سادة، ودلتنى عليكم السعادة، وقلت: قسماً، إن فيهم لدسماً، فهل من
فتى يعشيهن، أو يغشيهن (يكسوهن) وهل من حر يغدين أو يرديهن (يلبسهن ثياباً). قال
عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على حجاب سمعي كلاماً رائعاً أبرع؛ وأرفع، وأبدع، مما
سمعت منه. لا جرم أنا استمحننا الأوساط (يريد الأحزمة وما فيها من نقد) ونفضنا
الأكمام، ونحينا الجيوب ونلته (أعطيته) أنا مطرفي (ثوبي) وأخذت الجماعة إحدني، وقلنا
له: الحق بأطفالك، فأعرض عنا بعد شكر وفاه، ونشر (ثناء) ملأ به فاه".

وواضح ما يمتاز به البديع في مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة، حتى يدخل
السُرور على سامعيه وترتسم البسمات على شفاههم. ويكثر من إنشاد الشعر في المقامات،
ومن حل بعض الأبيات المشهورة، على نحو ما صنع بقوله: "وأتلاني زغاليل حمراء
الحواصل" يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريبة عهد بالولادة، فحواصلها لا تزال حمراء
خالية من الريش، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب، فتوجه إليه
يستعطفه لأولاده قائلاً:

ماذا تقولُ لأفراخِ بذي مَرخٍ
زُغِبَ الحَواصلُ لا ماءً ولا شَجَرٌ^(٢)

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة، غير أنه لم يستغلها في مقاماته بالمقدار الذي كان
يظن، إذ لم يضع في ذهنه صنع قصص وحكايات، إنما الذي وضعه وجعله نصب عينيه أن
يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبي الفتح وسيلة لحشد عبارات

(١) أشرط: علامات.

(٢) ذو مرخ: موضع بنجد.

مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة. وجاراه الحريري وغيره في صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية، وعدوها أروع صور النثر وأبلغه، غير حافلين بعمل قصص طويلة أو حتى قصص قصيرة متنوعة. وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات في إطار السجع، وتبعه خالفوه. وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا في رسائله - ألوان البديع من الأخيلة والتصاویر ومن الجناس ومراعاة النظر، وألهاه الحوار القصصي عن المبالغة في ذلك. ولا ريب في أن سجعه في مقاماته - كرسائله - سجع رشيق، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه. وقد يتحلل بعض مقاماته بالشعر، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة، على نحو ما نقرأ في المقامات: الحمدانية والموصلية والقردية. وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمي، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة في الغرابة. غير أن ذلك إنما يأتي في المقامات التي سميناهـا وفي الحين البعيد بعد الحين، بحيث لا تعد عيباً في أساليبه التي تطبعها - كما قلنا - الرشاقة، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرححة المحببة لكل إنسان.

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبلسية لبديع الزمان هي التي أوحى لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتها فيما وراء الطبيعة، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي إبليس في واد من وديان الجن، إذ ضلت منه إبل فخرج يطلبها، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار، وبينما هو ينظر من حوالبه إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه ورد السلام، وسأله ابن هشام هل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهش له ابن هشام، فأنشده قصيدة لجرير، وعجب ابن هشام من انتحاله لها، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس " ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا الشيخ أبو مرة ". ويغيب عنه، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً. وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته " التوابع والزوابع " أي الجن والشياطين، وهو فيها يلقي شياطين الشعراء في وادي الجن، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه، ثم أنشده من شعره، فيبدي إعجابه به ويحيزه اعترافاً بروعة شعره، ولقي شياطين

الكتاب كمالقى شياطين الشعراء، وعرض عليهم بعض رسائله، ولقى شيطان بديع الزمان الذي سماه "زبدة الحقب"، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته، ويحيزه على إبداعه. والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبلسية، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لهما، ويلقى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره، وأنه يعارض مقامته الإبلسية بتوابعه وزوابعه. وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صور فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن؟. ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال، فإن بديع الزمان هو الذي استغل لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبلسية، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة. ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع.

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حينئذ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وظفار وعمان والبحرين، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية. وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرقي الجزيرة وظهور آل فضل وآل مرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد. وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زبيد وصنعاء وصعدة وعدن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسولين فالطاهريين، فغلبة الدولة الزيدية عليها. وتتداول الدول اليمنية حضرموت، وكذلك ظفار إلى أن تبعت عمان نهائياً. وكان الخوارج في عمان يتخذون "نزوى" في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربي قروناً متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري. وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العيونية ودولة بني عصفور، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقطيف منذ أكثر من قرن.

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحضر، وظلت نجد بدوية إلا قليلاً في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم. وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا. وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهل لشيء بها من الحضارة، واشتهرت اليمن بكثرة الجواري والغناء. وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة: الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت "نزوى" بعمان مركزاً للخوارج الإباضية من قديم ومنها

شاع مذهبهم في حضرموت. وما يتتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدرعية الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد بن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة، وهي نداء يدعو إلى إتباع الحنابلة من أهل السنة. ويلقانا كثير من كبار المتصوفة في مكة واليمن وحضرموت، وكان النساك متشردين في كل مكان.

وكان يجري في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها، حتى في قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه: أحمد بن حنبل وابن تيمية، وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين، بما كان فيهما من العلماء والأدباء، وبما كان يفد عليهما سنوياً من أدباء العالم العربي وعلمائه، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالاً. وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العماني. وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات.

وكان الشعر يجري على كل لسان في أقاليم الجزيرة، وأخذت العامية تزاحم الفصحى في نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حميني في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قوياً فيها جميعاً، وقد ترجم الباخري لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم العماد الأصبهاني لطائفة من شعراء بني عقيل في الموصل وشعراء بني مزيد في الحلة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس. وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزؤرة في حقب العصر التالية، غير ما طبع ونشر من دواوين النابهين من الشعراء. ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هتيمل اليمني وأحمد بن سعيد الخروصي الستالي العماني وعلي بن

مقرب العيوني البحراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمي، كما يكثر شعراء المراثي من أمثال التهامي المكي وجعفر الخطي البحراني، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري اليمني وسليمان النبھاني العماني.

وتتكاثر في الجزيرة طوائف الشعراء، وملتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طليعتهم ابن القم والسلطان الخطاب وعمارة اليمني، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى بن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بهران وعلي بن محمد العنسي في اليمن، وبشعراء الخوارج من أمثال أبي إسحق الحضرمي الإباضي وابن الهبيني اليمني. وملتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية، وفي مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني اليمني وابن مشرف الأحسائي، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البرعي اليمني وعبد الرحمن العيدروس الحضرمي. وجميعهم رسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية.

ولم تكن نجد تعني بالكتابة قبل ظهور محمد عبد الوهاب، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نمواً واسعاً. وكان في مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريط الكتب. وكانت الكتابة مزدهرة في اليمن طوال العصر، وظلت ناشطة في حضرموت وعمان والبحرين. وتحفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك. وكانت الرسائل الديوانية ناشطة في اليمن منذ زمن الدولة الصليحية في القرن الخامس. وتحفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك في مصر، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج في عمان، وبالمثل بين الأئمة الآخرين وعمالهم. وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة. ويكثر الوعظ، وتلقانا محاورات ورسائل فكاھية ومقامات أدبية متنوعة.

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن العراق، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسي وبيان الدول التي تعاقبت على حكمه، وهي الدولة البويهية، يليها الدولة السلجوقية، ويسترد الخلفاء منها في منتصف القرن السادس الهجري صولجان الحكم، ويقضي التتار بقيادة هولاءكو على حكمهم وخلافتهم في منتصف القرن السابع. وتتعاقب على العراق وبغداد دولتان تناريان: دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان، ويظل العراق في قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية. وكان المجتمع في بغداد يتألف من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية مترفة. وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش، وطبقة دنيا هي طبقة العامة، وكانت تتجرع الضنك والبؤس، فتحول كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين - فيما يبدو - فكرة العدالة الاجتماعية، وشاع في العراق المذهب الشيعي الإمامي الاثنا عشري، وكان بجواره مذهب شيعي مارق هو مذهب النصيرية، ومذهب شيعي معتدل هو مذهب الزيدية. وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتي الجيلاني والرفاعي وما شاع بعدهما من طريقتي النقشبندية والبكطاشية.

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عني بها البويهيون والسلاجقة، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد، وتتكاثر المدارس، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية، وكانت المساجد مدارس كبرى يستمتع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبياً عاماً، مما أحدث رواجاً هائلاً في الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم في كتابه "الفهرست". وتظل هناك بقية لحركة الترجمة، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا. وتتكاثر الندوات الفكرية في بغداد ويتكاثر المتفلسفة، وخاصة قبل الغزو التتاري، وتظل منهم بقية في الحقب التالية. وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية

والطبية والعلمية والجغرافية، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر، وتنفذ بغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية. ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره. ويعنى صفى الدين الحلي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي. وتنشط بغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف.

ويتكاثر الشعراء في العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا في اليتيمة وتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم، وينظمون في الرباعيات والموشحات، ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية. ويلقانا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفاضل المتنبي أكبر شعراء العصر، وسبط بن التعاويذي، وصفى الدين الحلي. وملتقى بكثيرين من شعراء المراثي والهجاء والشكوى من أمثال السري الرفاء، وابن القطان. ويكثر شعراء الشيعة، وفي مقدمتهم الشريف الرضي، ومهيار، وابن أبي الحديد.

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول من نلتقي بهم شعراء الغزل، وقد أذاعوا فيه حنيناً وشوقاً وظماً للقاء محبوباتهم لا ينتهي، مما أعد لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند بن العلم والحاجري والتلعفري. ويتغنى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال ابن سكرة، وابن الحجاج، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي، والمرضى الشهرزوري، والصرصري. ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفي والتعليمي من أمثال ابن الشبل البغدادي وابن الهبارية، كما يلقانا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه، وأيضاً شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف العكبري.

ويتنوع الشر في العصر، فكان هناك الشر الفلسفي والشر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي والرسائل الشخصية. وتكثر الكتابات الديوانية

ونلتقي بأبي إسحق الصابئ والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير. ويلقانا من أعلام النشر أبو حيان التوحيدي بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء، والحريري بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفه حتى العصر الحديث.

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها، وهي الدولة السامانية، والدولة البويهية، والدولة الزيارية، والدولة الغزنوية، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري، وهي دولة السلاجقة، والدولة الخوارزمية، والدولة التتارية الإيلخانية، والدولة التيمورية، والدولة الصفوية، وما تلاها من الدول. وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية مترفة، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار، وطبقة دنيا هي طبقة العامة. ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلاً. ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران. وكان نشاط الإسماعيليين كبيراً طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائياً في منتصف القرن السابع الهجري. وكانت تعم في إيران موجة زهد وتصوف، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء، وسرعان ما رأب الصدع أبو نصر السراج، والقشيري، والغزالي.

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة، وخاصة في القرون الأولى، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب، وعُنوا بالمكتبات. وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم، حتى لانساء، وأخذوا يفردون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون. ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، وكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروني، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية. وتكاثر وضع المعاجم، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية. ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي، وفي الفقه، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين: الأشعري والماتريدي،

وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تناول التراجم: تراجم الشعراء والعلماء في كل فن.

ويزدهر الشعر الشعر العربي بإيران في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتمتها وفي الدمية والخريدة. ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشرعائه كتاب عوفي في القرن السابع الهجري. ونفس الشعر الإياني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي، وتناول نفس موضوعاته، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته. وقد ظل الشعر العربي حياً في إيران حتى القرن التاسع على الأقل. ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطغرائي والأرجاني، وبالمثل شعراء المراثي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي، والأبيوردي.

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو، وأبو الفضل الميكالي. يليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبي بكر القهستاني، وأبي الحسن الباخريزي، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القشيري، ويحيى الشهروردي، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المروزي، وأبو الفتح البستي، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبي دلف الخزرجي.

وينشط النثر، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وشمكير والعنبي ورشيد الدين الطواط، ومن أنبه كتاب إيران في العصر على توالي حقبة ابن العميد الذي أرسى قواعد التابة على ركنين أساسيين من السجع والمحسنات البديعية، وأوفي صاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تنتظرها من التجويد والتنميق. وينشئ بديع الزمان الهمذاني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة. وهو بحق يعدُّ أبرع كتاب إيران الذين ظهوروا في عصر الدول والإمارات غير منازع ولا مدافع.

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة	في الدراسات الإسلامية
* عصر الدول والإمارات (ليبيا- تونس - صقلية)	* الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٤٤٦ صفحة	الطبعة الأولى ١٠٥٢
* عصر الدول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى - موريتانيا- السودان)	* سورة الرحمن وسور قصار
الطبعة الأولى	(عرض ودراسة) الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات
في مكتبة الدراسات الأدبية	في تاريخ الأدب العربي
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي	* العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة	الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي	* العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة	الطبعة الرابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
* التطور والتجديد في الشعر الأموي	* العصر العباسي الأول
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة	الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة
* دراسات في الشعر العربي المعاصر	* العصر العباسي الثاني
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة	الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة
شوقي شاعر العصر الحديث الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة	
* الأدب العربي المعاصر في مصر	* عصر الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران	
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحات
* عصر الدول والإمارات (الشام)	* البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (مصر)	* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية.
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة	الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
* عصر الدول والإمارات (الأندلس)	* البحث الأدبي (طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره)
	الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور	* تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة	الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة
* في التراث والشعر واللغة	في مجموعة نوابغ الفكر العربي
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة	* ابن زيدون
في الدراسات النقدية	الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
* في النقد الأدبي	في مجموعة فنون الأدب العربي
الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة	* الرثاء الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
* فصول في الشعر ونقده	* المقامة الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة	* النقد الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة
في الدراسات البلاغية واللغوية	الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	* البلاغة: تطور وتاريخ
الرحلات الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة
في التراث المحقق	* المدارس النحوية
المغرب في حلي المغرب لابن سعيد	الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة	* تجديد النحو الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
الجزء الثاني - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة	تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد	الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة	* تيسيرات لغوية
* كتاب الرد على النحاة	الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة	
* الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر	
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة	

في سلسلة اقرأ	
* الفكاهة في مصر الطبعة الثانية	* مع العقاد
* معي (١) الطبعة الثانية	الطبعة الخامسة
* معي (٢) الطبعة الأولى	* البطولة في الشعر العربي
	الطبعة الثانية